سلسلة أبحاث مركز بحوث كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز - ٣٢

الحوار الحضاري بين المسلمين والفرنج
في عصر الحروب الصليبية

(٤٩١ - ٦٩١ هـ/١٠٩٧ - ١٢٩١م)

محمد سالم بكر باعامر

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ - جامعة الملك عبدالعزيز

مركز النشر العلمي
جامعة الملك عبد العزيز
ص ب ٨٠٢٠٠ - جدة ٢١٥٨٩
المملكة العربية السعودية
http://spc.kau.edu.sa

الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ (٢٠١٠م)

المراسلة: مركز البحوث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز

ص.ب: ٨٠٢٠٢ جدة: ٢١٥٨٩ هاتف: ٦٩٥١٧٣٣ / ٦٩٥٢٢٥٣ فاكس: ٦٩٥١٥٧٨ / ٦٩٥١٧٣٣

ردمد: ٢٨٢٩ - ١٦٥٨

رقم الإيداع: ١٦٢٣ / ١٤٢٧

مطابع جامعة الملك عبد العزيز

تقديـــم

إن البحث العلمي مهم وفعال في مسيرة الجامعات على اختلاف تخصصاتها العلمية ومواقعها الجغرافية وإمكاناتها المادية، وله دور كبير في تطوير المجتمعات الإنسانية، ولسنا نبالغ حين نقول أنه العنصر الجوهري والمثمر الذي يجعل الفرق كبيرًا بين مؤسسات التعليم العالي من جهة ومؤسسات التعليم العام من جهة أخرى. فبينما تقوم مؤسسات التعليم العام بتدريس العلوم الأساسية للطلبة منذ سن مبكرة وحتى التحاقهم بالجامعات، تتولى مؤسسات التعليم العالي نقل الطلبة من مرحلة تلقي الدرس، وربما الممارسة المبكرة للبحث العلمي، إلى مرحلة الإبداع والإنتاج الفكري المستقل والنضوج الثقافي. لذلك كان البحث العلمي ولايزال في قلب العملية التعليمية الجامعية، خاصة في مجال الدراسات العليا وأبحاث الماجستير والدكتوراه وما بعدها من أبحاث نظرية وتطبيقية. إن نجاح الجامعات ومراكز البحث العلمي في أداء الرسالة العلمية والثقافية المنوطة بها يعتمد - بشكل لا يمكن إنكاره - على الدور الذي تقوم به هذه المؤسسات في رعاية البحث العلمي وتطويره ودعمه ماديًا ومعنويًا.

تأسس مركز البحوث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٤٢١هـ، بهدف تحكيم ونشر البحوث المختلفة في المجالات التي تهم الأساتذة والباحثين في كليات الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعات السعودية بشكل خاص، والجامعات العربية بشكل عام. ويتطلع المركز إلى الوصول إلى تحكيم ونشر البحوث على النطاق الإقليمي والعالمي في المستقبل القريب - بإذن الله تعالى - وذلك للمساهمة في إثراء الحركة العلمية على المستوى الإنساني ودفع عجلة التقدم الفكري والثقافي، واستعادة الدور الريادي لهذه الأمة، وذلك على غرار ما فعلة العرب والمسلمون الأوائل.

ويُصدر مركز البحوث أبحاثه على شكل إصدار مستقل لكل بحث، يتم تحكيمه وتثبت صلاحيته للنشر في الأوساط العلمية المعتبرة، ويعطى كل إصدار رقمًا تسلسليًا تحت عنوان "سلسلة أبحاث مركز بحوث كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبدالعزيز". ويأتي هذا الإصدار كمساهمة علمية أصيلة ومحكمة في منظومة سلسلة إصدارات مركز البحوث. نضع بين يدي القارئ هذا البحث الذي تفضل مركز

النشر العلمي مشكورًا بمراجعته وطباعته ونشره، راجين الفائدة والمتعة والتواصل بين المركز وأصحاب السعادة أعضاء هيئة التدريس في جامعتنا العزيزة، وغيرها من الجامعات السعودية والجامعات الأخرى في المنطقة العربية.

ويرحب مركز البحوث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمشاركات البحثية والاقتراحات البناءة.

والله من وراء القصد،،،

مدير مركز البحوث

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

د. أيمن بن عبدالله حامد حابس

المستخلص

يتناول البحث الحوار الحضاري بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوربي الكاثوليكي زمن الحروب الصليبية، ويشتمل على مقدمة سيتم التأكيد فيها على أن الحضارة العربية على مر عصورها التاريخية حافلة بالكثير من الأمثلة الدالة على ما وصل إليه أبناؤها من رقي، وما تم من تطعيم لحضارة الغرب الأوربي من حضارة الشرق العربي، وهذا دليل على تفاعل الحضارات لا صراعها، وأن الإسلام دين تسامح يقبل الآخر وينفتح عليه ولم يعرف نزعة التعالي حتى عندما كان للمسلمين صولة وجولة؛ والعوامل التي حتمت قيام حوار حضاري بين الطرفين، مثل تنظيم الحدود المشتركة وهي التي ذكرتها المصادر العربية المعاصرة باسم بلاد المناصفات، واحترام رسم الحدود السياسية زمن السلم كمقوم من مقومات الحوار الحضاري، وعنصر التجارة في الحوار الحضاري، والجمارك ودورها كجسر للحوار الحضاري، والنظام الإداري في الجانبين، والفلاحون ودورهم في إثراء ودعم الحوار الحضاري، ثم التعايش السلمي ومعاملة الأسرى ودورهم في تقريب الثقة بين الطرفين، وتنظيم معاملاتهم والدور الرائد للمسلمين في هذا المجال، وسماحة الإسلام معهم في زيارة الأماكن المسيحية المقدسة كعامل من عوامل الحوار، وكفالة المسلمين حق اللجوء السياسي لأبناء الغرب الأوربي ودوره في الحوار الحضاري، والمترجمون كرواد للحوار الحضاري، ثم الحوار الثقافي ودوره في الحوار الحضاري وتمثل ذلك في العديد من النواحي مثل: دخول كثير من المصطلحات في لغة الآخر، وترجمة القصص والكتب، ومجال الفنون العسكرية، وتعلم الفرنج اللغة العربية، وتأثر الفرنج بالأمثال العربية، وتعلم العرب بعض لغات الفرنج، والمناظرات والحوارات العلمية، وتبادل المعلومات الخاصة بغرائب الطيور والحيوانات، والطب والصيدلة، ووسائل تمضية أوقات الفراغ وأنواع التسلية، والجغرافيا.

مقدمة

شهد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد حوارًا حضاريًا في جوهره، سياسيًا وعسكريًا في مظهره بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوربي الكاثوليكي زمن الحروب الصليبية، والتي اتخذت من بلاد الشام ومصر وتونس ميدانًا، ومن الفترة ما بين أعوام ٤٩١-٦٩٠هـ/١٠٩٧-١٢٩١م زمانًا. ونجح أبناء الغرب في تأسيس كيانات استيطانية لهم على التراب العربي ممثلة في مملكة بيت المقدس، وإمارات أنطاكية(١) والرها(٢) وطرابلس(٣)، إلى أن جاء عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م معلنًا عن تحرير الأرض العربية منهم(٤). وعلى مدى حوالي قرنين توالت موجات عديدة من الأوربيين الجوعى للأرض، والذين اتخذوا من الشرق العربي مقصدًا؛ وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية كانت كأي حرب أخرى فيها صدامات عسكرية، إلا أنها كانت تعبيرًا عن ثقافة وأفكار ومواقف الناس في تلك العصور؛ حيث عَبَّرَ الطرفان عن مفهومهما لحسن الجوار وبخاصة في أوقات السلم التي تم فيه التواصل الحضاري على نطاق واسع (٥). ودليلنا على ذلك قول مؤرخ معاصر لتلك الحقبة: "ومن غريب ما يتحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين، مسلمين ونصارى يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصاري تختلف بينهم دون اعتراض..." (٦). أو بعبارة أخرى أن الحروب الصليبية (the crusades) لم تمنع التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب حتى وهي في عنفوانها (٧).

وإذا كان يتردد في بعض المراجع الحديثة العربية وغير العربية أن الصليبيين من أبناء الغرب الأوربي لم ينعموا خلال وجودهم بالشرق بفترة من الهدوء اللازم، حتى يتمكنوا من البحث والدراسة والتعمق في الحضارة العربية، فهذه المقولة يجانبها الصواب إلى حد كبير، فالمعروف أن فترات السلم كانت أكبر بكثير من فترات الحرب، حيث أمكن إحصاء أكثر من ٢٥ معاهدة للسلام بين الطرفين، تتراوح مدة الواحدة منها ما بين ٤ سنوات، و١١ سنة (عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام)، فإذا كان متوسط عمر هذه المعاهدات حوالي سبع سنوات ونصف،

فيكون إجمالي فترات السلم حوالي ١٨٠ سنة من إجمالي فترة الحروب الصليبية النشطة على أرض بلاد الشام والتي تقارب قرنين من الزمان [٨].

كانت الحروب الصليبية أو حروب الفرنج في بلاد الشام ولا تزال مستودعا للتجارب والخبرات الإنسانية الهائلة، إذ أنها تصور حضارتين متجاورتين في حال من الحوار والتفاعل، تبرزان قيمة السلام والعدل والتنمية والتواصل بين الشعوب، ونبذ الحروب والنزاعات، وتوجيه الجهود كافة كلما أمكن لصنع التنمية والتقدم. فالحضارة العربية الإسلامية التي كانت ولا تزال تحتضن أبناء جميع الديانات، تحت ظلالها الوارفة لتسعد العالم المتمدن آنذاك، والحضارة الغربية الكاثوليكية التي كانت تبحث لنفسها عن مكان في ذلك العالم [٩]. وليس أدل على ما حدث من تفاعل حضاري من قول أحد مؤرخي اللاتين، والذي عاصر تلك الفترة: "نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين . ." [١٠].

كما أننا نحب أن نؤكد أنه ليس الهدف من هذه الدراسة اجترار الماضي، بقدر ما هو التعريف بالتراث الإسلامي والإنساني، بما يخدم ثقافة السلام والأمن والاستقرار، وتنمية روح الإخاء الإنساني، وتوليد وعي أفضل، وقدرة أكبر على تنمية ثقافة السلام التي تحقق الاستقرار والأمن والرخاء للشعوب، وحث كل فرد في موقعه على القيام بدور فاعل لنشر ثقافة السلام، لأن العالم أصبح الآن قرية صغيرة بفضل التطور الهائل في وسائل الاتصال والمعلومات. وتوجيه الدعوة لأبناء الغرب لنبذ أعراض العنف والحماقات الناجمة عن اعتقادهم أن مجتمعهم ونظمهم وطرق معيشتهم هي أسمى مما لدى الآخرين. وأن الحضارة العربية الإسلامية على مر عصورها التاريخية حافلة بالكثير من الأمثلة الدالة على مدى ما وصل إليه أبناء هذه الحضارة من رقي وتقدم وازدهار في كل مجال ومكان، في أنحاء العالم العربي والإسلامي، وأن الدارس للتراث العربي يستوقفه كثير من الحقائق الدالة على مدى ما أخذته حضارة الغرب الأوربي من حضارة الشرق الإسلامي في تلك الفترة الزمنية. بينما عنصرية الغرب شيء لا يختلف عليه اثنان، فكما ادعى اليهود كذبا أنهم أبناء الله وأحباؤه ادعى الغرب - أوربا وأمريكا- كذبا أنهم صفوة العالم

وسادته، وأولياء أمره وقادته. ويعاني العالم كله من دعواهم هذه، ويتألم وهم فيها في ازدياد وتماد وغطرسة وعناد. فبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م امتدت نزعة العداء والكراهية إلى المسلمين عامة والإسلام بحقائقه ومبادئه ونظمه، وأخذ بعض الكتاب والمحللين الإعلاميين يصورون الإسلام على أنه دين التعصب والإرهاب، وأنه لا يرعى حرمة الإنسانية، وأنه لا يحترم الحقوق الإنسانية، إلى آخر هذه الدعاوى التي كان لها أثر سيء في تشكيل فكرة أبناء الغرب عن الإسلام [١١]. والذي يمعن النظر يجد أن السبب الحقيقي في هذه الكراهة هو ماض استرجعوه وهو حروب صلاح الدين[١٢]، وباطل ابتدعوه وهو ما أسموه بنظرية (صراع الحضارات) التي ظهرت بعد تحلل الاتحاد السوفيتي وتفككه والتي قال بها هنتنجتون (Huntington) ، الأستاذ بجامعة هارفارد (HarfordUniversity)، وقد جاء فيها أن الإسلام كعقيدة تتوافر فيه إمكانات الشر والتطرف والتعصب الديني، وأنه مصدر الخطر الكبير الذي يهدد الحضارة الغربية المعاصرة وفقا لرؤيته [١٣].

والواجب يقتضي منا أن نشير إلى أنه لا يوجد كتاب سماوي حاور المخالفين مثل القرآن الكريم، إلى جانب أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حافلة بكثير من صور الحوار معهم. وأن الإرهاب موجود حاليا في مناطق كثيرة من العالم ليس بها إسلام مثل أيرلندا الشمالية[١٤]، كذلك معروف تاريخيا أن المسلمين لم يكونوا هم سبب الحربين العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م) والثانية (١٣٦٥ - ١٣٦٨هـ/١٩٤٥-١٩٤٨م) ، بل إن المسلمين هم ضحايا للقمع والإرهاب والاستبداد في كثير من بلدان العالم مثل: بورما[١٥]، وكشمير[١٦]، وفلسطين. وأن وصف الإسلام والمسلمين بالعنف، والقول باستعدادهم التاريخي لسفك الدماء، وكراهيتهم التاريخية للغرب، فهذه أسطورة يروج لها الغرب، وهي أسطورة نتجت عن فهم خاطئ للإسلام والمسلمين. كما أن المنادين بفكرة صراع الحضارات يعيدون إلى الأذهان النظرة المغرضة التي فرضتها الكنيسة الغربية على الناس فرضا، والتي صورت المسلمين ظلما وافتراء في صورة هدَّامي الحضارة ومقوضيها، وهم في حقيقة أمرهم ليسوا إلا بناتها وحماتها[١٧]، وربما استولت علينا الدهشة عندما نسمع أميرا صليبيا يقول: "إن القتال بين المسلمين والإفرنج شيء مستهجن" [١٨].

إن من يدرس الحضارة الإسلامية دراسة واقعية سوف يدرك على الفور أن مفكري الإسلام قد آمنوا بالتعددية الثقافية، كما آمنوا أيضا بأن العلاقة التي تجمع بين الثقافات المتعددة يجب أن تكون علاقة تفاعل وحوار، لا علاقة صدام أو صراع. ومن هنا انطلق مفكرو الإسلام في إقامة حوارهم مع الآخر، وقد حكم هذا الحوار مجموعة من الأسس والمبادئ تتجلى في ثنايا هذا البحث.

إن تاريخ الفكر الحضاري يشهد بأنه لا توجد حضارة قامت واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هي دائما نتيجة تطور حضاري دام وتفاعل مع حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها مع غيرها من الحضارات، وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص النمو والاكتساب والتعلم والتطور.

وإذا كان التاريخ الحضاري يؤكد على تفاعل الحضارات وتكاملها، فهو يؤكد أيضا أن لكل حضارة طبيعتها وذاتيتها الخاصة، والتي تعبر فيها عن روح العصر والظروف التي نشأت فيها، وأن الازدهار الحضاري الذي تشدو به أوربا في الوقت الحالي إنما هو حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى، التي تركت بصماتها على تاريخ البشرية ومن أهمها الحضارة العربية الإسلامية، مما يعني أن الحضارة الحديثة التي نعيشها الآن عامة لا تتعلق ببلد من البلدان أو بشعب من الشعوب، بل أسهم في بنائها أبناء البشرية جمعاء وفي مقدمتهم المسلمون [١٩].

كما أن غالبية أبناء البشر، سواء المسلمين منهم أو المسيحيين أو اليهود هم أبناء ديانات سماوية، والأصل في الأديان أنها رسالات حب، ودعوة للسلام والرحمة والتسامح والحوار لتحقيق التقارب بين البشر، والاعتراف بحق الآخر في الاختلاف وليس الصراع فالأديان السماوية لا تتناقض في أصولها، ولا تتصادم في أسسها.

ومن الجدير بالذكر أن الحروب الصليبية (the grusades) أو حروب الفرنج، وما ترتب عليها من آثار ونتائج قد استحوذت على اهتمام كثير من الباحثين في هذا

الميدان، باعتبارها محورا للعلاقات بين الشرق والغرب في أهم فترة من العصور الوسطى (middle ages). وإذا كانت المكتبات تزخر بكثير من المؤلفات العربية وغير العربية في هذا المجال، إلا أنها قد أغفلت عددا من الجوانب المهمة في تاريخ العلاقات الحضارية بين الطرفين، والتي أمكننا الوقوف عليها في المصادر المعاصرة لتلك الحقبة، وبخاصة العربية منها. ولما كانت أوربا في العصور الوسطى قد وجدت نفسها أمام حضارة عربية إسلامية، فقد أقبلت عليها واستمدت منها أصول نهضتها الحديثة، ثم أضافت إليها الكثير، ثم دار الزمن دورته وانقلبت الصورة، حيث أخذت الحضارة العربية الإسلامية في التراجع والتخلف أمام الحضارة الأوربية الحديثة. وهذا يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الحضارات الإنسانية لا تستطيع الواحدة منها مهما كان مستواها أن تعيش بمنأى عن غيرها، وأن الفكر البشري عبر العصور التاريخية يتوارثه الخلف عن السلف، بموارده المتعددة ما بين شرقية وغربية وبعبارة أخرى إن الحضارات الإنسانية هي نتاج جهد بشرى متنوع ومتواصل، وأن حوار الحضارات حقيقة حتمية [٢٠].

وإذا كان الغرب الأوربي قديما قد أخذ الآداب والعلوم والفنون عن العرب وأقام نهضته على دعائمها، فإنه حديثا سيطرت عليه نزعة التعالي والعنصرية، على مجمل نظرته وعلاقاته مع الحضارات والمجتمعات الأخرى، ولم يعترف بأن الأفكار والنظريات التي أسسوها إنما أقاموها على ثقافة العرب والمسلمين وحضارتهم. بل إن بعض أبناء الغرب يتهمون العرب والمسلمين بأنهم مقلدون غير مبدعين، وأنهم لم يقدموا شيئا يذكر إلى الإنسانية، ففي بحثنا هذا سنقوم بإلقاء الضوء على بعض الجوانب الحضارية التي تعلمها الغربيون من العرب والمسلمين، وهي جوانب جديدة تماما نسعى من خلالها لدحض كلام الغربيين المغرضين، ولبيان أن الحوار هو خير وسيلة للرقي والازدهار وليس الصدام، وأن الإسلام هو دين التسامح الذي يقبل الآخر، وينفتح عليه ويتحاور معه وليست لديه حساسيات أو حقد أو كراهية للآخر، وأنه ينهى عن التفرقة، ولم يعرف نزعة التعالي والعنصرية.

أولا: تنظيم الحدود المشتركة (بلاد المناصفات)

يأتي في مقدمة الموضوعات التي حتمت قيام نوع من الحوار الحضاري بين المسلمين والصليبيين كيفية تنظيم الحدود المشتركة، أو نظام حكم المناطق الدولية، وهو ما عرف في المصادر العربية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية باسم نظام (بلاد المناصفات)، سواء كانت هذه المناطق مراعيًا، أو مناطق صيد، أو موانئ، أو مدنًا، أو مناطق زراعية[٢١].

والدراسة التحليلية لنظام بلاد المناصفات تؤكد على أن ما توصل إليه المسلمون وأبناء الغرب الأوربي لحل مشاكل الحدود المشتركة بينهما كان سابقًا على ما توصلت إليه الدول الحديثة. وأن ذلك النظام يرجع للسنوات الأولى من فترة الحروب الصليبية، هذا النظام إن دل على شيء فإنما يدل على إدراك كل منهما ضرورة قيام نوع من الحوار وخصوصًا عندما تتأزم الأمور بينهما، وذلك للبحث عن فرصة للوصول إلى حل يرضي جميع الأطراف المتحاورة [٢٢]. وأول إشارة عن هذا النظام جاءت سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م والتي ذُكِر فيها: "وردت الأخبار بهلاك صنجيل (St. gelle) مقدم الإفرنج النازلين على ثغر طرابلس في رابع جمادى الأولى بعد أن كان الأمر استقر بينه وبين فخر الملك ابن عمار[٢٣] صاحب طرابلس من المهادنة على أن يكون ظاهر طرابلس لصنجيل بحيث لا يقطع الميرة [٢٤] عنها ولا يمنع المسافرين عنها" [٢٥].

هذه الإشارة لها دلالتها على مدى إدراك أسلافنا لطبيعة العصر الذي عاشوه وما به من مشكلات أثرت سلبا أم إيجابا في طبيعة علاقاتهم بالطرف الآخر، وفي أهدافها، وأن المصلحة الاقتصادية أولى وأهم من الحرب. فإذا استرجعنا ذاكرة التاريخ وما حدث عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م. عندما تشابكت المصالح المشتركة بين الملك الفرنجي بلدوين الأول[٢٦] (Baldwin I) ملك بيت المقدس، وطغتكين[٢٧] الحاكم التركي لدمشق وقتذاك مما دفعهما إلى تبادل الرسائل وإجراء كثير من الحوار حول القسم الشمالي من إقليم شرق الأردن والمعروف باسم إقليم السواد[٢٨] وجبل عوف[٢٩]، هذا الحوار انتهى بعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينهما، على أن يتم تقسيم

ريع هذه المنطقة إلى ثلاثة أثلاث، يحصل حاكم دمشق على الثلث، ويحصل ملك بيت المقدس المذكور على الثلث الثاني، بينما يترك الثلث الأخير لسكان هذه المنطقة وكلهم من الفلاحين نظير قيامهم بزراعة الأراضي الداخلة في نطاق هذا الإقليم، والذي اعتبره الطرفان أحد مناطق الحكم المشترك بينهما[٣٠].

وبسبب إحكام أبناء الغرب الأوربي قبضتهم على بعض المدن والموانئ وطرق التجارة الداخلية والخارجية في بلاد الشام، واحتكارهم لكثير من مصادر الثروة والإنتاج، فلم يكن في مقدور الطرف الإسلامي أن يلغي الطرف الآخر بحال من الأحوال أو يتجاهل مصالحه. واهتم الطرفان بالتركيز على مواضع الاتفاق والالتقاء وتنميته والالتفاف حوله، وإهمال مواضع الخلاف، وترك خصوصيات كل طرف يعيشها كما شاء، فمن ذلك ما حدث عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م عندما واصل الملك بلدوين (Baldwin I) ملك بيت المقدس توسعاته وإغاراته على المناطق الإسلامية المجاورة كنوع من الضغط للحصول على مكاسب جديدة، فما كان من ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق إلا أن سارع بمراسلته لوضع حد لممارساته العدوانية، ولتأمين سلامة سكان المنطقة التي تعرضت للغزو وهي منطقة الجولان*، وتقرر جعلها منطقة حكم مشترك بين الطرفين، وتم توقيع معاهدة بذلك، كان من أهم بنودها أن يتم اقتسام عائد تلك المنطقة، بحيث يحصل الطرف الإسلامي على ثلث العائد، ويحصل الطرف الفرنجي على ثلث آخر، بينما يترك للفلاحين الذين يقطنون تلك المنطقة الثلث الأخير نظير عملهم فيها [٣١]. وهكذا يتضح لنا أن عجز حكام دمشق عن مدافعة الفرنج، كان السبب في أن تصبح هذه المنطقة منطقة حكم مشترك وتقسيم ريعها، ليس هذا فحسب بل إنهم بضعفهم هذا وإيثارهم السلامة جعلوا الفرنج مشاركين للمسلمين فى حكم بعض الحصون القريبة من منطقة الجولان[٣٢] هذه مثل حصن مصياف وحصن الطوفان وحصن الأكراد، حيث اشترطوا على أهلها أن يحملوا مالاً معيناً للفرنج في كل سنة، ويبدو أن هذا الاتفاق لم يدم طويلا حيث يذكر مصدر معاصر قوله: "فأقاموا على ذلك مدة يسيرة" وإن لم يذكر ما حدث بعد ذلك [٣٣].

ولم يقتصر مثل هذا الحكم المشترك على هذه المنطقة وأهلها، بل كان معروفا ومعمولا به أيام عماد الدين زنكي[٣٤]، ويلقى قبولا من الطرفين الإسلامي والفرنجي. فنحن إذا استرجعنا ذاكرة التاريخ مرة أخرى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م نجد عماد الدين زنكي وقد استرد حصن الأثارب بين حلب وأنطاكية، بعد أن كان الفرنج به يقاسمون أهل حلب[٣٥] على جميع المناطق الريفية الواقعة إلى الغرب منها والتابعة لحلب، لدرجة أنهم قاسموا أهل حلب على رحى بظاهر باب سورها الغربي وهو باب الجنان[٣٦]. وما أشار إليه مصدر معاصر عن نفس السنة من أن عماد الدين زنكي عندما حاصر قلعة حارم قرب حلب. فإن حكامها الفرنج قبلوا أن يقاسمهم عماد الدين زنكي على نصف دخلها[٣٧]. وبعد مرور عشرين سنة أي في سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م تم توقيع هدنة بين نور الدين محمود بن زنكي والفرنج في أنطاكية تنص على أن ما يقرب من أنطاكية يكون لهم، وأن ما يقرب من حلب يكون لنور الدين محمود [٣٨].

ثم يتكرر المشهد في عهد صلاح الدين الأيوبي مرة أخرى في أواخر الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام (٥٨٧-٥٨٨هـ /١١٩١-١١٩٢م)، وفي أعقاب الحروب الطويلة التي خاضها الطرفان بقيادة كل من صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد[٣٩] (Richard Hart lion) ملك انجلترا، تم توقيع صلح الرملة[٤٠] عام ٥٨٧هـ/١١٩١م والذي كان من ضمن شروطه أن تصبح مدينتا الرملة[٤١] واللد[٤٢] الساحليتين مناصفة بينهما [٤٣]. بما يؤكد أن كل طرف من الطرفين لم يتجاهل مصالح الطرف الآخر.

ثانيًا: الحدود السياسية مقوم من مقومات الحوار

إن الاختلاط الذي لم يكن هناك محيص عنه بين الطرفين الإسلامي والفرنجي قد أدى إلى تبدل ملحوظ وظاهر في شعور كل من الجانبين نحو الآخر، وخصوصا زمن السلم الذي طالت مدته كثيرا عن زمن الحرب [٤٤]. وفيما يتعلق بعملية رسم الحدود واحترامها، فيذكر لنا الرحالة المغربي ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) وهو في طريقه من دمشق إلى عكا، أن في منتصف الطريق ما بين قرية بيت جن[٤٥]

ومدينة بانياس[٤٦] كانت هناك شجرة بلوط ضخمة كانت تسمى بشجرة الميزان، فلما سأل عن السبب في تلك التسمية قيل له إنها "حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق، من أخذه الفرنج وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسِرَ. ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله. لهم في ذلك عهد يوفون به. وهو من أطرف الارتباطات الفرنجية وأغربها" [٤٧].

كما أن جبل لبنان[٤٨] كان حدا بين بلاد المسلمين والفرنج، وما وراءه من أنطاكية واللاذقية[٤٩] وسواهما من بلاد الفرنج. وأن الهدف من رسم تلك الحدود هو حماية التجار والمسافرين والصيادين من خطر الأعمال العدائية [٥٠]. كذلك يذكر ابن جبير أن في المسافة الواقعة بين مدينة بانياس التابعة للمسلمين وحصن هونين التابع للفرنج والذي يبعد عن بانياس ثلاثة فراسخ (مفردها فرسخ أي ١٢ ميلاً والميل ١٧٦٢ متراً) كانت هناك نقطة حدودية قال عنها: "ولهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة "[٥١].

ومما يدل على مدى ما توصل إليه الطرفان من اعتدال في السياسة، وحسن تصريف الأمور، وتفهم صحيح للغاية الحقيقية من الحياة، ما جاء في نصوص المعاهدات التي أبرمت بينهما لاحترام الحدود المشتركة وإلزام المسئولين من الطرفين، الإفرنج والمسلمين باحترام تلك الحدود، والحيلولة دون وقوع أي اعتداء عليها سواء كان ذلك من جانب القوات العسكرية أو من جانب عناصر أخرى مثل اللصوص وقطاع الطرق، هذا مع تكليف الطرفين بردع هذه العناصر، ويظهر الاهتمام واضحًا في كثير من المعاهدات بشأن رسم الحدود بين الدول والإمارات الإسلامية وتلك الخاضعة للفرنجة لتحديد البلاد التي تتبع لكل من المسلمين والفرنجة[٥٢] ففي المعاهدات التي أبرمت بين السلطان المنصور سيف الدين قلاوون[٥٣] والفرنج في عكا عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م جاء النص التالي: "يلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسهما وعساكرهما وجنودهما ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين، ممن هو داخل حكمهما وطاعتهما. ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية

المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسهم وعساكرهم وجنودهم ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين، ممن هو داخل تحت حكمهم بمملكتهم الساحلية الداخلة في هذه الهدنة" (٥٤).

كما أن هناك بعض التحفظات على المباني العسكرية الواقعة على حدود بلاد المناصفات أو الحكم المشترك وهي من الأمور الجديدة تمامًا بالنسبة لأبناء الغرب الأوربي، وقد تعددت النصوص في المعاهدات لإلزام المسؤولين المسلمين والفرنجة باحترام الحدود والحرص دون وقوع أي اعتداء عليها سواء كان ذلك من جانب القوات العسكرية أو من جانب عناصر أخرى مثل اللصوص وقطاع الطرق، كما تحرص السلطات الإسلامية في الإبقاء على القلاع والحصون الواقعة على الحدود على حالتها دون إحداث أي تعديل في تحصيناتها، مما قد يؤثر على التوازن العسكري، كما تنص بعض البنود في هذه المعاهدات على ألا يباشر الفرنج أي إصلاحات لأزقة بها إلا بعد معاينة النواب المسلمين وموافقتهم على ذلك فمن البنود التي جاءت في هذا الشأن: "وعلى أنهم لا يجددون عمارة قلعة، ولا في القلعة عمارة ولا في أبراجها ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرممونه به بعد أن يعاينه نوابنا في هذا التاريخ، ولا يجددون عمارة في ربضها (الربض هو الظهير الزراعي) ولا في سورها ولا في أبراجها، ولا يجددون حفر وعمارة خندق، أو تجدد بناية خندق، أو قطع جبل، أو تحصين عمارة، أو تحصن بقطع جبل منسوبا لتحصين يمنع أو يدفع ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم " (٥٥).

وفي موضع آخر يذكر المصدر السابق في حديثه عن معاهدة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م نفسها أنه تم النص فيها "على أن الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليث(٥٦) وصيدا(٥٧)، مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات، لا قلعة، ولا برجا، ولا حصنا مستجدا (أي لم يكن موجودًا من قبل)" (٥٨).

وقد يحسن أن نشير إلى أن دراسة مثل هذه المعاهدات ، إنما تترك في النفس أثرها ، فتجعلنا ندرك ما كان للشرق عامة، وللعرب من أهله خاصة، من فضل في التطور الدبلوماسي للغرب والغربيين. فقد جاء الغرب إلى الشرق يعب من مناهله العذبة، حتى ارتوى فعاد وقد تبدل بالجهل علمًا وبالتأخر تقدمًا وبحياة قاتمة أخرى مشرقة(٥٩).

ثالثاً: عنصر التجارة في الحوار الحضاري

إن التاريخ ليس مجرد سرد حكايات، بل إن له لغايات أبعد وأعمق، يجدر بنا أن نتوصل إليها، وأن ننفذ إلى مواطنها، حتى تتجلى الحقائق واضحة، وتبدو النتائج ناصعة، في مجرى التطور في المجتمع والاقتصاد والثقافة. ذلك أن من يتصفح بنود العديد من الهدن والمعاهدات (أي موادها ونصوصها) التي تم عقدها زمن الحروب الصليبية بين الطرفين. ونقصد بذلك الطرف الإسلامي والطرف الصليبي سوف يقف على حقيقة مهمة وواضحة تمام الوضوح، ألا وهي خبرة المسلمين العالية بكل المقاييس بالأمور التجارية بموضوعاتها المختلفة، وحرصهم الواضح على تعليمها ونقلها لأبناء الغرب الأوربي الذين استوطنوا الشرق آنذاك، وخصوصا ما يتعلق منها بتطور العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ودخولها في علاقات سلمية مع جيرانها، وتقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام هي دار الإسلام، ودار الحرب، ودار الصلح أو دار العهد. ومراعاة رعاياهم وتأمينهم على أنفسهم ومتاجرهم في البلاد الإسلامية، وتأمين المسلمين عندهم، ومما يلفت النظر أن العديد من المعاهدات التي تم عقدها بين الطرفين الإسلامي والفرنجي تضمنت الكثير من المواد التي تتعلق بالتعامل التجاري بين الطرفين كما تبادلت تلك المعاهدات جوانب متعددة من التي كانت تعرض للتجار عند ممارستهم نشاطهم التجاري.

ولنضرب على ذلك مثلا بما جاء في المعاهدة التي وقعت بين الطرفين عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري(٦٠) المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك فقد ورد فيها: "أن التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين الإسلامية والفرنجية

والنصرانية، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها، على النفوس والأموال والدواب، وما يتعلق بهم، يحميهم السلطان ونوابه، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات من جميع المسلمين، ويحميهم بيت الاسبتار[٦١] في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات من الفرنج والنصارى كافة "[٦٢].

ولم يظهر الطرفان حرصهما على تأمين التاجر على حياته وماله وتجارته أثناء حياته فحسب، بل حرصا على ذلك بعد وفاته، من ذلك ما جاء في معاهدة المنصور قلاوون معهم: "ومتى توفي أحد من التجار الصادرين والواردين، المترددين على اختلاف أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده في عكا وصيدا وعثليث، والبلاد الساحلية الواقعة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى أن يوصل إلى نوابها، وكذلك التجار الصادرين والواردين المترددين من عكا وصيدا وعثليث، والبلاد الساحلية، إذا توفي أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة يحتفظ على ماله إلى حين يُسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين "[٦٣].

ولقد برهن أسلافنا في علاقاتهم مع الآخر على أن لهم رسالة عالمية، وأن البشر وإن كانوا مختلفين فإن هذا الاختلاف يجب أن يكون سبيلا إلى التعارف والتكامل، وهذا ما عكسه لنا وليم الصوري[٦٤] (Wiliam of Tyre) في كتاباته عن هذا التعارف والتكامل ورسالة المسلمين العالمية، وعن مدى استفادة الفرنج في بلاد الشام منهم، وخصوصًا فيما يتعلق بقوانين العرف البحري التي تعلموها من المسلمين، عندما تتحطم إحدى سفن الدول الأوربية بالقرب من الشاطئ الشامي الفرنجي والمحافظة على ممتلكات التجار وحمايتها إلى أن يتم تسليمها لذويهم[٦٥] بعد أن كانت القاعدة لديهم الاستيلاء على حطام السفن وما قد يوجد معها من بضائع من قبل الأمير الفرنجي الذي غرقت السفينة أمام ساحل بلاده، وعدم الاعتراف بحقوق ورثة الغرقى من التجار الذين كانوا عليها[٦٦].

رابعًا: الجمارك ودورها كجسر للحوار الحضاري

إن احتياجات كل من الطرفين الإسلامي والفرنجي للسلع التي يحصل عليها عن طريق الطرف الآخر في بلاد المناصفات أو الحكم المشترك اقتضت قيام حركة تبادل تجاري بينهما، وتزايدت باستمرار حركة انتقال السلع بينهما، مما حتم ضرورة عملية تنظيم الرسوم الجمركية وطريقة دفعها وتحصيلها بين الطرفين، وإن كنا في الواقع نفتقر إلى كثير من المعلومات بهذا الخصوص إلا أن نصوص بعض المعاهدات التي وقعت بين الطرفين قد نصت على عدم زيادة تلك الرسوم، والإبقاء عليها كما هي كنوع من التشجيع للتبادل التجاري القائم بينهما. وتم التأكيد في تلك المعاهدات على مراعاة ذلك في كل منطقة من المناطق الجمركية التي تقوم بتحصيل تلك الرسوم دون زيادة، بل والنص على تأمين التجار المترددين على تلك المناطق من رعايا الطرفين وحراستهم وحراسة ما معهم من أصناف السلع المختلفة غير الممنوع تبادلها. ويقصد بذلك السلع المهمة والتي تلقى معارضة في تداولها، وكانت البابوية تهدد بعقوبة الحرمان لمن يأتي بها إلى المسلمين وبصفة خاصة السلاح بأنواعه، والأخشاب التي تستخدم في صناعة السفن، والحديد والقار، والرقيق، وكلها من السلع الاستراتيجية والتي كان المسلمون في مسيس الحاجة إليها، ويجلبها لهم أبناء الغرب الأوربي (٦٧).

ومن الصعب بمكان أن نحدد نسبة الرسوم الجمركية، إلا أننا اعتمادًا على بعض الدراسات الحديثة، يمكننا القول أن السلع المستوردة من المدن الإسلامية كان يدفع عليها رسوم ما بين ٤-٩٪ من قيمتها مثل الكتان والأقمشة الحريرية، بينما كان يتم دفع ما بين ٤-١١٪ على سلع الشرق الأقصى، أما السلع العابرة من المناطق الصليبية إلى المدن الإسلامية فكان يتم دفع حوالي ٤٪ من قيمتها، وهناك بعض السلع التى كان يتم دفع ١٥٪ من قيمتها، ومن المرجح أن تكون هذه السلع هي السلع الاستراتيجية، من خشب وحديد وبعض المعدات الحربية (٦٨).

وارتفع مستوى الحوار بين المسلمين والفرنج، واستمر الطرفان في ممارسة الدبلوماسية جنبًا إلى جنب مع سياسة الدفاع عن المصالح الخاصة بكل طرف من

الطرفين في معاملته مع الطرف الآخر، وخصوصا في بيع السلع المحظورة بوجه عام والسلع الاستراتيجية بوجه خاص، ووضع العقوبات على التجار الذين لا يتقيدون بهذا الحظر، وليس أدل على هذا مما جاء في المعاهدة التي وقعها السلطان سيف الدين قلاوون مع فرنج عكا وفيها: (أن الممنوعات المعروف منعها قديما تستقر على قاعدة المنع من الجهتين، ومتى وجد صحبة أحد من تجار بلاد السلطان وولده من المسلمين وغيرهم، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، شيء من الممنوعات بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، مثل عدة السلاح وغيره، تعاد على صاحبه الذي اشتراه منه ويعاد إليه ثمنه، ولا يؤخذ ماله استهلاكا، ولا يؤذى بسبب ذلك، لا هو ولا ماله، وكذلك إذا طلع تجار الفرنج من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أديانهم وأجناسهم، ووجد معهم شئ من الممنوعات مثل عدة السلاح وغيره، يعاد على صاحبه الذي اشتراه منه، ويعاد إليه ثمنه ويرد، ولا يؤخذ ماله استهلاكا، ولا يؤذى، وللسلطان ولولده أن يفصلا فيمن يخرج من بلادهما من رعيتهما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم بشيء من الممنوعات. وكذلك كفيل المملكة بعكا والمقدمون لهم أن يفصلوا في رعيتهم الذين يخرجون بالممنوعات من بلادهم الداخلة في هذه الهدنة" (٦٩).

ويجدر بنا أن نذكر أن المتحصلات عبر المنافذ الجمركية بجميع أنواعها، والتي كان يتم تحصيلها في بلاد المناصفات كان يتم اقتسامها بين مندوبي الطرفين الإسلامي والفرنجي. وهذه المتحصلات عبارة عن الضرائب التي كانت تفرض على الفلاحين وعلى الأرض الزراعية، بما فيها من حدائق وبساتين، وما يتم تربيته فيها من نحل وطيور وحيوانات، أو ما يفرض على مصايد الأسماك التي قد توجد بها، أو المراعي وما يدخلها من أعداد الحيوانات المختلفة للرعي (٧٠).

وجرت العادة على أن تكون الرسوم والضرائب على اختلاف أنواعها مناصفة بين السلطان والمسؤول الفرنجي في بلاد المناصفات، وذلك بعد تسجيلها في ديوان كل طرف من الطرفين، فقد جاء في نص المعاهدة التي أبرمها السلطان الظاهر بيبرس مع الاسبتارية: " على أنه متى دخل في بلاد المناصفات أحد ممن

يجب عليه العداد وامتنع من ذلك وكان عداد أحد الجهتين حاضرًا : إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الاسبتار فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصفات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداد بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفات، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد، وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه فإن دخل بلد من بلاد الملك الظاهر كان على النواب إيصال بيت الاسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد، وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاسبتار كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد، وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة" (٧١)، وهذا يعني أن الضرائب والرسوم على مختلف أنواعها ترفع إلى عداد ديوان كل من الطرفين الإسلامي والفرنجي حيث يتم سداد الضرائب المقررة على كل منهما على السواء، كما أنه في حال غياب أحد النائبين كان يتعين على نائب الطرف الآخر الموجود أن يحتفظ بالقدر المستحق له من الرسوم ليسلمه إليه عند حضوره.

كذلك وضعت بنود خاصة في المعاهدات المعقودة بين الطرفين الإسلامي والفرنجي، بخصوص رفع أي طرف من الطرفين أو من ينوب عنهما مساعدة أو محاباة أحد ممن يستلزم عليه دفع الرسوم أو الضرائب التي يجب عليه دفعها للطرف الآخر، أو أن يتفق معه لكي يضيع على الطرف الآخر نصيبه، وهذا ما تؤكده المعاهدة التي أبرمت بين الظاهر بيبرس مع الاسبتارية (Hosptallers): "وعلى أنه لا يحمي أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكتاب، والنواب، والمستخدمين شيئا على اسم بيت الاسبتارية، ليستطلق الحق ويمنع من استيدائه، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم، وإذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط، أخذ ماله مستهلكا للجهتين: للديوان السلطاني المعمور، ولبيت الاسبتار، إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادرا وواردا، وكذلك في البر صادرا وواردا بعد المحافظة على ذلك وصحته"، ومن هذا النص يتضح إلزام كل

من الطرفين الإسلامي والفرنجي على عدم حماية أي شخص ممن يستحق عليه دفع تلك الرسوم والضرائب وأنه متى تم اكتشاف مثل هذا التلاعب فإن الشخص نفسه كان يعاقب بمصادرة كل ما معه من أموال" (٧٢).

ومن التنظيمات التجارية أن تكون عمليات البيع والشراء - وخاصة بين تجار الطرفين - موثقة بعقود تجارية مكتوبة، وكان من الواجب أن يشهد على عقد البيع الكاتب والترجمان والشهود، ولم يكن جائز فسخ العقد إلا بموافقة الطرفين أو في حالة اكتشاف المشترى أن البضاعة مغشوشة أو مخالفة للشروط المتفق عليها (٧٣).

خامسًا: النظام الإداري في الجانبين

إن نظام المناصفات أو الحكم المشترك لم يكن بحال من الأحوال يعبر عن علاقة استيلاء وهيمنة بقدر ما كان يعبر عن علاقة ندية ومصالح مشتركة متبادلة، وهذه العلاقة لم تكن رغبة أحد الطرفين لتقل عن رغبة الطرف الآخر في استمرارها، وبمرور الوقت تطور نظام الحكم المشترك حيث بدا للعيان اتفاق الطرفين على ضرورة إيجاد شكل تنظيمي مقبول من الجهتين تمثل في وجود إدارة إسلامية فرنجية مشتركة، هذه الإدارة كان يتم تشكيلها من قبل الطرفين، ويرأسها نائب عن السلطان المسلم وآخر عن الحاكم أو الأمير الفرنجي الذي يقع جزء من بلاد المناصفات ضمن حدوده. وقد وصل الحوار الحضاري بينهما قمته في الاتفاق - عن تراضٍ- على ألا ينفرد أحد الأطراف بشيء دون الآخر (٧٤) ولقد ضنت المصادر علينا في التعريف باختصاصات هذا النائب، ولكننا نرجح أن تكون الشئون المالية هي أهم اختصاصاته (٧٥). لكن من المعروف وجود موظف عرف باسم المشد أي المفتش، وربما كان من أهم اختصاصاته الإشراف على تحصيل الرسوم الجمركية وتسجيلها، والإشراف على مراعي بلاد المناصفات، وكذلك مناطق صيد الأسماك وتدوين مقاديرها وتقسيمها بين الطرفين إلى جانب تدوين مقادير وقيمة الغلات التي يتم تصديرها من كل طرف في بلاد المناصفات إلى الطرف الآخر، وذلك في السجلات التي لديه والمعدة لهذا الغرض وخير شاهد على ذلك ما جاء في المعاهدة التي تم توقيعها بين السلطان المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس

عام ٦٨٠هـ/ ١٣٨١م، والتي جاء فيها "ولا يمنعوا ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم المشد فيه، وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق" [٧٦].

ويعمل في خدمة المشد (المفتش) عشرة من جنود المشاة الرجالة يقومون في خدمته ويسكنون في بيوت خاصة وفقاً للعادة المتبعة، وإلى جانب المشد، وجد بعض الموظفين الآخرين والذين جاء ذكرهم في بعض المصادر الإسلامية بأن منهم الشاهد، والكاتب، وثلاثة غلمان، وبذلك يكون عدد من يعملون مع نائب الطرف الإسلامي ستة عشر نفرًا بما فيهم الجنود العشرة، وكان من أهم اختصاصاتهم منع أي أذى يقع على الطرف الفرنجي[٧٧].

أما فيما يختص بعمل الكاتب فقد كان عليه أن يقوم بتسجيل ما يتعلق بالرسوم والضرائب ومقاديرها، ومقادير المحاصيل الزراعية وأسعارها، والأغنام والماشية، وأعدادها، وما يتم فرضه عليها من رسوم، كل ذلك في دفاتر خاصة أعدت لهذا الغرض، ويشهد الشاهد على ما تم تدوينه فيها وأحيانًا يساعده في هذه العمليات الحسابية المختلفة [٧٨].

أما بالنسبة للطرف الفرنجي فلم تذكر المصادر شيئًا عمن يعملون مع النائب، وهذا يدفعنا إلى القول بأن العشرة جنود السابقين كانوا من قبل الطرف الإسلامي باعتبارهم أهل البلاد وأقدر على ضبط أمورها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربما كان ذلك تعبيرًا عن ثقة من الطرف الفرنجي في الطرف الإسلامي، ويبدو أن الاهتمام الأساسي في هذه الإدارات كان بموارد المنطقة والرسوم، والضرائب التي تجمع منها، ولو أن المعلومات عن الوظائف المذكورة محدودة وغير وافية[٧٩].

وقد بلغت لغة الحوار بين المسلمين والفرنج أرقى مستوياتها، حيث كانت مواد المعاهدات المتعلقة ببلاد المناصفات أو مناطق الحكم المشترك تنص على ضرورة سلامة وأمن ممثلي الطرفين، كما تهتم بتنسيق التعامل بينهما، ويؤكد ذلك ما جاء في المعاهدة التي تم توقيعها بين السلطان الظاهر بيبرس ومقدم طائفة الاسبتارية عام

٦٦٩هـ / ١٢٧٠م، حيث ورد البند التالي: "وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاسبتارية، وولاته وكتابه ومستخدميه وغلمانه، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم، وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمينا وكتابنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم، ومتفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر المقاسمات والطرقات والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن، على اختلاف أجناسها وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الاسبتار متفقين جملة على ذلك لا ينفرد أحد منهم بشيء إلا باتفاق وتنزيل في دفاتر الديوان المعمورة، وديوان بيت الاسبتار ولا يطلق ولا يحبس إلا باتفاق من الجهتين ولا ينفرد واحد دون آخر "(٨٠).

ومن المفيد أن نذكر أن بلاد المناصفات هي مناطق محايدة، لها حرمتها والتي حرص الطرفان على التأكيد عليها دائما في المعاهدات التي أبرمت بينهما: "وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، ممن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة. وكذلك مقدم بيت الاسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة..."(٨١). ومن البنود والنصوص الواردة في المعاهدات بخصوص إعطاء بلاد المناصفات طابع المنطقة المحايدة، كانت تلك البنود تنص على عدم السماح لأي طرف من الطرفين أو اتباعهما باستخدام تلك البلاد للعبور منها لمهاجمة أو أذية بلاد الطرف الآخر، وجاء التشديد في بعض المعاهدات بشكل صريح على عدم دخول أحد من بلاد الحكم المشترك سواء كان من الفلاحين، أو أبناء القبائل العربية، أو التركمان، أوغيرهم إلى البلاد الخاضعة للفرنج لإغارة أو أذية مهما كانت الظروف والدواعي، ولم يتم استثناء الطرف الفرنجي من ذلك، حيث تم النص على ألا يسمح حكامهم أو قادتهم لأحد منهم بدخول بلاد المسلمين بهدف الإغارة وإلحاق الضرر(٨٢).

سادسًا: الفلاحون ودورهم في إثراء الحوار الحضاري

إن قصة الحوار الحضاري في مجال العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنج قصة متعددة الجوانب والأشكال، وعميقة الآثار والنتائج وعلى وجه

الخصوص ما يخص الفلاحين الموجودين في الأراضي التي خضعت لهذا النوع من الحكم المشترك الإسلامي والفرنجي، حيث أنهم كانوا الأيدي العاملة التي تحتاج إليها الحقول، فكان من الطبيعي أن يحرص كل من الاثنين على فلاحيه وعلى سلامتهم، ولبيان أن الحضارة العربية الإسلامية قد تميزت بخصيصة لم يشاركها فيها غيرها من الحضارات، ولم تضاهيها أو تدانيها، وهي خصيصة تكريم الآدمية وإحاطتها بالتبجيل والتفضيل، وقد عكست المعاهدات مدى الحرص على فلاحي هذه البلاد وعلى سلامتهم وعدم تسخيرهم في أي عمل من الأعمال، ومما يشير إلى ذلك الاهتمام من بين تلك المواد التي وردت في بعض المعاهدات، " أن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين " [٨٣].

كما كانت لغة الحوار هي خير وسيلة للتعبير عن حرص الطرفين الإسلامي والفرنجي على أن تتضمن المعاهدات الموقعة بين الطرفين مواد تنص على عدم ممانعة أحد الطرفين من عودة بعض فلاحي بلاد المناصفات، الذين اضطروا إلى هجرتها بسبب الخوف من وقوع الحرب وآثارها المدمرة ، فقد جاء في المعاهدة التي تمت بين السلطان الظاهر بيبرس والاسبتارية في حصني الأكراد[٨٤] والمرقب[٨٥]: "أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود. وكذلك بيت الاسبتار لا يمنعون أحدا من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفات من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العود..." [٨٦].

وكان الطرفان على مستوى رفيع من التفاهم، يتضح ذلك أشد الوضوح فيما كانا يفعلانه حيال الظروف السياسية المتغيرة، سواءً فيما يحدث من مد إسلامي واستعادة بعض المناطق من الفرنج، أو ما يحدث من اضطراب الأمور، مثل مجيء حملة جديدة من الغرب قد تؤثر على العلاقات بين الطرفين، أو أن يستغل الطرف الفرنجي قيام سلطان جديد فيقومون ببعض عمليات جس النبض والإغارة على بعض ممتلكات المسلمين، مما قد يؤثر بشكل أو بآخر في وضع فلاحي بلاد المناصفات واضطرارهم إلى الهجرة، إلا أن الطرفين حرصا على إزالة كل العقبات

أمام هؤلاء الفلاحين، وتمكينهم من العودة إلى بلادهم الأصلية، من ذلك ما جاء في معاهدة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، والتي نصت على ضرورة المناداة في بلاد الطرفين بعودة فلاحي المسلمين إلى بلاد المسلمين، وفلاحي بلاد الفرنج إلى بلادهم، ولا يُمكن فلاحو بلاد طرف من الطرفين من الإقامة في بلاد الطرف الآخر مع توفير الأمان لهم جميعا، ولم يحدث أن أخل طرف بهذه الشروط (٨٧).

كما ظهر ذلك الحرص واضحًا في تمتع هؤلاء الفلاحين في بلاد المناصفات بحرية التنقل بين شطري البلاد رائحين وغادين، ومتصرفين في بيع وشراء ما يلزمهم مطمئنين لا يتعدي أحد عليهم بأي حال من الأحوال، وكذلك جميع فلاحي بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الاسبتارية، كذلك إن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار تكون المهلة خمسة عشر يومًا فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم، ومن توجبت عليه اليمين حلف ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية (٨٨).

كما حرص الإسلام والمسلمون على احترام شخصية المخالف لهم ولم يفرضوا عليه أحكامهم، أو يجبروه على الخضوع لشرائعهم، ولحل ما قد ينشأ من مشكلات تنجم عن التعامل اليومي، فقد تم وضع بعض البنود الخاصة بذلك، حيث كان المبدأ الأساسي في هذه البنود أن تطبق الشريعة الإسلامية إن كان الشخص مسلمًا، ويطبق القانون الفرنجي إن كان الشخص فرنجيًا. من ذلك ما جاء في معاهدة السلطان الظاهر بيبرس مع الاسبتارية في حصني الأكراد والمرقب عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م. هذه المعاهدة تدل على أن المسلمين والفرنج وإن كانوا مختلفين في الشرائع، لكن الاختلاف يجب أن يكون باعثًا للتعاون والتسابق في الخيرات وتحقيق العدالة بشتى مظاهرها، وينهى عن الظلم الذي يندفع إليه الناس بدوافع من البغض والكراهية؛ ويدعو إلى التسامح وعدم المسارعة إلى العدوان، حتى مع وجود ما يدعو إليه (٨٩). وتبين لنا أن الإسلام قد اعترف لأهل الأديان الأخرى بحظهم من الكرامة التي جعلها الله للنفس البشرية، وقد أوصى الإسلام بالبر بهم وحسن المعاملة لهم، والعدل معهم، ما داموا يكفون عن المسلمين عدوانهم، ولا يؤذونهم.

وهكذا يتسع صدر الإسلام للآخر الذي يدين بأديان غير الإسلام، فالإسلام إذن لا يدمر الآخر، أو يسعى إلى إفنائه وإزالته من الوجود (٩٠). كما أن الإسلام لا يهضم حق أبناء الديانات السماوية الأخرى بشتى أجناسهم.

والحقيقة أن مثل هذه المعاهدات وغيرها تعطى صورة حضارية مشرقة تنفى عن الإسلام والمسلمين تهمة الانغلاق والوحشية، والعيش خارج المحيط الكوني. وأن الإسلام والمسلمين قد وضعوا ضوابط ومناهج على الصعيد السياسي والاجتماعي والنفسي لتفادى صدامات الأفكار، وتعارض الطوائف، وهي خصيصة العدالة النزيهة مع الأعداء.

سابعًا: تبادل الأسرى وإثراء الحوار الحضاري

إن المتتبع لموضوع الأسرى وكيفية معاملتهم من قبل الطرفين سوف يقف على ذلك التفاعل الحضاري الذي تم في هذه الفترة التاريخية المهمة، وكيف نجح الطرفان الإسلامي والفرنجي فى إيجاد صيغة للتعايش السلمي، وتنظيم معاملة الأسرى. وهنا تجب الإشارة إلى أن أبناء الغرب الأوربي عندما انتقلوا من مختلف بلاد الغرب الأوربي إلى منطقة الشرق الأدنى، واغتصبوا أراضيها وأنشؤوا إداراتهم التي استمرت نحو قرنين من الزمان، فإنهم لم يهتموا في بداية الأمر بالاحتفاظ بأسرى المسلمين، بل إنهم لجؤوا إلى قتل كل من تصل إليه أيديهم من المسلمين في المدن التي استولوا عليها وتفريغها من سكانها المسلمين وما إن احتكت جموعهم بشعوب المنطقة، حتى وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام حضارة بهرت منهم العيون، وثقافة أدهشت منهم العقول، فهزت منهم المشاعر وصقلت منهم النفوس (٩١). فراح أبناء الغرب الأوربي يتعلمون من المسلمين الكثير من طرق معاملة الأسرى. فأول إشارة وردت عن بداية اهتمامهم بأسرى المسلمين كانت في أعقاب استيلاء الفرنج على مدينة بيت المقدس، فعلى الرغم من المذابح الهائلة التي أحدثوها في سكان المدينة وبخاصة من المسلمين واليهود، فإنهم احتفظوا ببعض أسرى المسلمين واستخدموهم فى تنظيف المدينة من جثث القتلى، إلا أن عدد هؤلاء الأسرى يبدو أنه كان قليلا لأنهم اضطروا لاستخدام بعض فقراء الفرنج وكذلك بعض الجنود في هذا العمل نظير أجر معين

يدفع لهم [٩٢]. ثم أخذ موضوع الاهتمام بالحصول على الأسرى يزداد تقليدًا لما كان متبعًا عند المسلمين لاستخدامهم في بعض الأعمال التي لم يكن الفرنج يستطيعون أداءها، أو للحصول على فدية كبيرة من جراء افتكاك أسراهم، بل ومساعدة هؤلاء الأسرى على فك أسرهم. فالسلطات الإسلامية كانت تتيح الفرصة لبعض الأسرى لافتكاك أنفسهم وكما تشير بعض المصادر المعاصرة لذلك، فمن كان منهم ذا ثروة كان يدفع الفدية، ويتم إطلاق سراحه [٩٣].

وقد اقتدى الفرنج بما كان يفعله حكام المسلمين في مساعدة الأسرى على تحصيل الأموال المطلوبة، لفك أسرهم بكثير من الطرق، ومنها السماح لهؤلاء الأسرى بالتجول في شوارع المدن الكبرى وطرقاتها مكبلين بالقيود ومعهم بعض المكلفين بحراستهم، حتى يتسنى لهم جمع المبالغ المقررة عليهم لافتكاك أسرهم، ومن يفشل منهم في الحصول على ما هو مقرر عليه، تتاح له الفرصة عدة مرات إلى أن يتقرر مصيره فيحضر أحد المسئولين من جهته فيدفع ما عليه، أو يباع في أسواق الرقيق إذا طال عليه الأمر كما سوف نرى فيما بعد [٩٤]. ومن وسائل حصول الأسرى على الأموال إتاحة الفرصة لهم للعمل بأجور شهرية لدى كبار الأمراء أو في إقامة إحدى المنشآت [٩٥].

كذلك كانت السلطات الإسلامية تتيح الفرصة لأبناء الجاليات الأجنبية المقيمين في البلدان الإسلامية لشراء بعض الأسرى وخاصة من أبناء جلدتهم، والدليل على ذلك ما ذكره أحد المؤرخين من أنه عثر على وثيقة في دار الوثائق البندقية جاء فيها أن نائب قنصل البندقية بالإسكندرية قام في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨١٨هـ، الموافق ٢٢ من أغسطس عام ١٤١٥م بشراء أسير إيطالي يدعى فرين أنجلي البولي (Ferino Angeli) من أبوليا بكعب إيطاليا بمبلغ ٣٥ دوكة، دفع منها نائب القنصل ٢٥ دوكة وأجل دفع العشر دوكات الباقية لمدة عشرة أيام، يدفعها عند تنفيذ العقد وتسليم الأسير له [٩٦].

وتنبغي الإشارة إلى أن السلطات الإسلامية حرصت كل الحرص على هؤلاء الأسرى، والتفتيش على نظافتهم، وألزمتهم بضرورة حلق لحاهم، وتفقد ذلك

باستمرار، كذلك وضعتهم في سجون خاصة بهم روعي فيها عدم استخدام أي شخص غريب أو فيه ريبة، ومضاعفة الحراسة على تلك السجون [٩٧]. هذا إلى جانب صدور الأوامر من السلطات الإسلامية باستمرار بضرورة توفير ما يرتب لهم من طعام وشراب، وتفقد مرضاهم وذلك عن طريق الأطباء المكلفين بالخدمة وبالمرور على هذه السجون، إلى جانب توفير ما يحتاجون إليه من كسوة بل تفاض عليهم في أوقاتها" [٩٨].

ونرى في عصرنا الحالي كثيرا من الدول تتخذ بعض الإجراءات في معاملة أسرى أعدائها، كان أسلافنا لهم السبق فيها، فقد كان هناك موظف في ديوان الجيش أطلق عليه بمصطلح العصور الوسطى (كاتب الجيش)، كانت مهمته تختص بالإشراف على الأسرى، حيث كان يسجل أسماءهم، ودياناتهم، وجنسياتهم، كذلك يدون أسماء من يتم الإفراج عنهم بمرسوم من المراسيم، وعليه أن يدون تاريخ هذا المرسوم، واسم من حضر على يديه المرسوم، ومن تسلم الأسير منهم، كما يدون في سجلاته أسماء الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام، ومللهم السابقة وأجناسهم وتاريخ إسلامهم، وكذلك تاريخ الإفراج عنهم، فضلا عن أنه كان يدون أسماء من يهرب من الأسرى أحيانا أو يهلك منهم، وربما كان على علم بأماكن تجمعاتهم في السجون أو المعتقلات، وأعداد من ينزل منهم بكل منها [٩٩].

ومن الدلائل على رقي الحضارة العربية الإسلامية وأبنائها ومبلغ ما وصل إليه الحوار الحضاري بشئون الأسرى، السماح لحكام الفرنج بتفقد أحوال أسراهم لدى المسلمين. فهناك حالات كثيرة كان يسمح فيها المسلمون لرسل الفرنج بدخول البلاد الإسلامية لتفقد أحوال أسراهم، مثال ذلك ما يرويه لنا مؤرخ صلاح الدين الأيوبي في ذكره لحوادث سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م من قول: "وصل الفرنج الذين بُعثوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم، ووصل معهم من مميزي أسراهم أربعة نفر..." [١٠٠]. وكذلك ما نجم عن المعاهدات التي تم عقدها بين حكام المسلمين والفرنج من كثرة عمليات تبادل الأسرى، مثال ذلك ما جاء في معاهدة سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م التي وقعت بين السلطان الظاهر بيبرس وطائفة الاسبتارية أنه سمح لرسل الفرنج بدخول البلاد الإسلامية لتفقد أحوال أسراهم [١٠١]. وكنوع من تيسير افتكاك الأسير وتأكد

أهله من وقوعه في الأسر، وتسهيل الاتصال به، ومعرفة ما هو مقرر عليه من مال أو خلافه، يقومون بالحلف أمام والي المكان الذى هم منه بتعهدهم بدفع ما عليه دفعة واحدة أو على دفعات، وتقوم السلطات الإسلامية بفك أسره وتسليمه لهم [١٠٢].

لقد مكنت هذه الامتيازات من تحقيق الحد الأقصى من التفاهم، وكثرت بذلك النصوص الخاصة بالأسرى وتسهيل إطلاق سراحهم وقد اختلفت الشروط بالنسبة لمعاملة الأسرى وفقًا لعوامل متعددة منها مكانة الأسير ومدى أهميته، وكذلك ما يكون عليه من التزامات للطرف الآخر سواء أكان ذلك على شكل مال أو غلة أو غيرها، وكان يتطلب أن يكون هناك شهود على هذا الالتزام، وكان يطلق سراحه بعد أن يوفي ما عليه، وأما أولئك الذين يحتجزون بدون سبب فيطلق سراحهم وفقًا لما يتفق عليه من ذلك ما جاء في نص الهدنة التي عقدت عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م بين السلطان المنصور قلاوون وبين حكام الفرنج في عكا وما معها من بلاد سواحل الشام، "وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة كل من عليه منهم مبلغ أو غلة، فيحلف والى ذلك المكان الذي منه الرهينة، ويحلف المباشر والكاتب في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا: من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره، فإذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرنج عليه فيطلقونه" وأما الرهائن الذين أخذوا منسوبًا إلى الجفل والاختساء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمنع الولاة والمباشرون من اليمين عليهم فأولئك يطلقون"[١٠٣].

وقد بلغ الحوار الحضاري أقصى ما يمكن أن يصل إليه لدى المسلمين حيث لم تبخل السلطات الإسلامية على هؤلاء الأسرى بشيء لدرجة أنها سهلت لهم في سجونهم أو معتقلاتهم تربية بعض الخنازير وبيع لحومها لغير المسلمين [١٠٤]. كذلك كانوا يحصلون على بعض المبالغ عن طريق إنعامات السلاطين وكبار الأمراء على الذين شاركوا منهم في تشييد بعض عمائرهم، أو عند الانتهاء من حفر جسر من الجسور، أو بناء إحدى القناطر. من ذلك ما يرويه لنا ابن إياس عن أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١٠٥] (ت ٧٤١هـ/١٣٤١م)، من أنه عندما انتهى العمل

في القصر الكبير (القصر الأبلق)، فقد أنعم على الأسرى ضمن من أنعم عليهم من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين وغيرهم [١٠٦]. كما تشير بعض المصادر المعاصرة لتلك الحقبة إلى أن الأسرى المكلفين برعاية السواقي سواء في القلعة أو في الميدان تحت القلعة، وفي دور الأمراء وغيرهم كانوا يقومون بتحصيل بعض الأموال من جراء قيامهم ببيع روث الأبقار التي تدير تلك السواقي، وذلك لحسابهم الخاص [١٠٧]. هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة لتلك الحقبة عن تخصيص رواتب من الخزانة السلطانية لكثير من الأسرى، إلا أنه نتيجة للأزمة الاقتصادية التي أخذت تظهر بوادرها أواخر القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي وبداية الخامس عشر الميلادي فقد قطعت تلك الرواتب [١٠٨]. أما على الجانب الآخر فإن المصادر المعاصرة لم تذكر شيئًا عن مثل تلك التصرفات.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الحوار الحضاري حول تبادل الأسرى وحسن معاملتهم ظل قائمًا حتى بعد طرد البقايا الفرنجية من بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، ذلك أن أعداد الأسرى زادت نتيجة للسياسة التي انتهجتها البابوية عن طريق تحويل الحصار الاقتصادي والحرب الاقتصادية ضد المسلمين في البحر الأبيض المتوسط إلى سلسلة من أعمال النهب، والتخريب للموانئ الإسلامية في مصر والشام لتجعلها غير آمنة لنزول التجار. والمصادر التاريخية مليئة بأخبار غارات قراصنة كتالونيا "قطالونية"[١٠٩] والقبارصة، وفرسان الاسبتارية برودس[١١٠] على السواحل والموانئ المصرية والشامية، بحيث أصبحت جزيرة قبرص[١١١] أهم الأسواق التي يتجمع فيها أسرى المسلمين، ومما يثبت هذا القول ما أشار إليه المؤرخ المقريزي وهو أحد المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة من أنه في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)[١١٢]، "قدم كتاب الأمير اقبغا النظامي الذي كان قد توجه إلى جزيرة قبرص لفك الأسرى بأنه وجد بالجزيرة من أسارى المسلمين خمس مئة وخمسة وثلاثين أسيراً فكاكهم بثلاثة عشر ألف دينار وثلاث مئة دينار، وأنه قد أوصل إلى متملك قبرص العشرة آلاف دينار المجهزة معه، فانفك بها أربع مئة أسيراً كل أسير بخمس مئة درهم، عنها خمسة وعشرون دينارًا وقد افتك متملك قبرص من ماله مئة وخمسة وثلاثين أسيرًا بثلاثة آلاف

وثلاث مئة وخمسة وسبعين دينارًا، وقد حمل منهم إلى جهة مصر في البحر مائتي أسير، وفرق في جهات السواحل الشامية باقيهم " [١١٣] واستمرت هذه السياسة حتى السنوات الأخيرة من حكم دولة المماليك.

ثامنًا: الأماكن المقدسة كعامل من عوامل الحوار الحضاري

تعد مدينة بيت المقدس وما جاورها مركزًا مهمًا لتجمع العديد من الأجناس والطوائف الدينية المختلفة على مدار العام، وذلك لوجود كثير من الأماكن المقدسة داخل المدينة وخارجها وارتباطها بالأديان السماوية الثلاثة، وهي الإسلام والمسيحية واليهودية، وقد أصبحت كثير من المواضع محط أنظار الكثير من أبناء الديانة المسيحية ومهوى أفئدتهم، وقدموا لزيارتها من شتى أنحاء الغرب الأوربي وتأتي كنيسة القيامة[١١٤] في مقدمة الأماكن التي حظيت بعناية كل من يرد إلى المدينة للزيارة، وبها كنيسة القبر المقدس، وكنيسة السيدة العذراء، والقديس يوحنا الإنجيلي[١١٥]، وكنيسة القديس ميخائيل[١١٦]، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان[١١٧]، وفي آخر مدينة القدس من جهة الشمال كنيسة صهيون[١١٨]، ثم كنيسة مار يعقوب[١١٩]، وكنيسة المصلبة[١٢٠]، وكنيسة مريم داخل جبل طور زيتا[١٢١]، وكنيسة المهد في بيت لحم[١٢٢]، ثم كنيسة القديس يوحنا بالقرب من نهر الأردن[١٢٣]، وفي مدينة الخليل هناك العديد من قبور الكثير من الأنبياء مثل: آدم ويعقوب وإسحاق وزوجاتهم التي يحرص المسيحيون على زيارتها، هذا إلى جانب العديد من الأديرة التي حظيت بزيارة المسيحيين وبعض الطوائف المختلفة مثل: دير المصلبة وهو بظاهر مدينة القدس الشريف وهو دير رومي قديم البناء ودير الدواكيس شرق القدس، ودير سابا وهو إلى الجنوب الشرقي من بيت المقدس، ودير العذراء ويسمونه (دير ستنا مريم) واقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة، ودير الخليل فوق جبل طور زيتا وفيه كنيسة قديمة يسميها الروم (عاليليا) يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ظهر لتلاميذه بعد قيامه لأول مرة في هذا المكان [١٢٤].

وتجلت روح الحوار الحضاري والتسامح الديني من قبل المسلمين في مجال زيارة الأماكن المقدسة المسيحية من قبل أبناء الغرب الأوربي في أعظم صورها،

حيث حرصت السلطات الإسلامية على سلامة وأمن هؤلاء الزوار، بل وشمولهم بعطفهم وحمايتهم وتوفير سبل الأمن والأمان لهم، وتعيين الحراس لمرافقتهم في رحلتهم وحتى عودتهم سالمين [١٢٥]. إذ يروى لنا أحد الرحالة اللاتين أن كبير المترجمين كان يجمع هؤلاء الزوار أمام كنيسة صغيرة على اليسار من كنيسة القيامة ببيت المقدس، ثم يسجل أسماءهم وأعمارهم وأوصافهم الشخصية، ويرسل منها نسخة إلى كبير المترجمين في القاهرة، وهذه الاحتياطات كانت تتخذ على الرغم من أنه كان يحدث نفس الشيء عند نزولهم بميناء يافا[١٢٦]، والتي كان الهدف منها الحرص على سلامتهم، والتأكد من ذلك، وأن البدو لم يقوموا بإعاقة أحدهم أو احتجاز بعضهم [١٢٧].

ولم يقتصر حرص السلطات الإسلامية على سلامة هؤلاء الزوار لبيت المقدس فقط، بل أيضا لمن أراد منهم بعد ذلك زيارة سيناء[١٢٨]، إذ يروى لنا الرحالة الألماني فيلكس فابري (Felix) أنه والزوار الذين كانوا معه قد استأذنوا نائب السلطنة في بيت المقدس أن يسمح لهم في حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم خشية قطاع الطرق وإغارات البدو عليهم، فسمح لهم بحملها على أن يسلموها في القاهرة. ليس هذا فحسب، بل إنهم كانوا يتمتعون طوال رحلاتهم بحريتهم الدينية كاملة، ويمارسون طقوسهم وعباداتهم داخل بعض الكنائس المحلية، مثل الكنيسة المرقصية في الإسكندرية أثناء انتظارهم للسفن التي سوف تقلهم في رحلة العودة لبلادهم[١٢٩].

وقد بلغ من تسامح حكام المسلمين أن سمحوا لطائفة الرهبان الفرنسيسكان (Franciscan) وكلهم من أبناء الغرب الأوربي بالإقامة في كنيسة عُلّيَة صهيون ورعايتها والقيام على خدمتها منذ عام ٧٧٦هـ/ ١٣٣٥م، كما سمحوا لهم ببناء دير لهم يضم هذه الكنيسة وبقية الأماكن المسيحية المقدسة المجاورة لها، وهو الذى عرف بدير صهيون. وكان الرهبان الفرنسيسكان (Franciscan) في العصر الوسيط على الدوام محلا لرعاية وحماية السلاطين المسلمين بالقدس، وتمتعوا بكل الأمان والاستقرار. كما تعددت المراسيم الصادرة من السلاطين المسلمين إلى ولاة الأمور والمتصرفين بالقدس والرملة وبيت لحم بمنع المظالم وكف أسباب الضرر عنهم والوصية التامة بهم [١٣٠].

كما حرص الطرفان على أن تتضمن بعض المعاهدات التي وقعت بينهما بنودا خاصة بتسهيل زيارة الأماكن المسيحية المقدسة، من ذلك ما جاء في معاهدة السلطان المنصور قلاوون مع فرنج عكا سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م من النص: "وعلى أن تكون كنيسة الناصرة(١٣١)، وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، ومن عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا نقبت الحجارة التى بالكنيسة المذكورة ترمى، ولا يحط منها حجر لأجل بنايته، ولا يتعرض للأقساء ولا الرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق" (١٣٢).

كما جاء في المعاهدة الموقعة بين السلطان المنصور قلاوون ومملكة أرغونة عام ٦٨٩هـ/١٢٨٩م، "أنه إذا وصل من بلاد الملك الريدراغون(١٣٣) وبلاد إخوته ومعاهديهم من الفرنج، من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك الريدراغون وختمه إلى نائب مولانا السلطان بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحًا بالحق ليقضي زيارته، ويعود إلى بلاده آمنا مطمئنا في نفسه وماله، رجلا كان أو امرأة..." (١٣٤).

تاسعًا: اللجوء السياسي من الطرفين ودوره في الحوار الحضاري

واضح مما تشير إليه بعض المصادر والمراجع أن حق اللجوء السياسي في عصر الحروب الصليبية كان من الموضوعات التي تشهد بطول باع المسلمين في هذا المجال، وأن أبناء الغرب الأوربي كانوا قليلي الخبرة في هذا المجال. وأن اللاجئ السياسي كان يحصل على أمان قبل أن تطأ أقدامه البلد التي سيلجأ إليها، ويحرص الحاكم الإسلامي على منحه هذا الأمان على نفسه وماله ومن يحضر معه، بل والتوصية به فى كل مكان يحل به. وتكفينا قراءة ما كان يكتب في هذا الشأن كما جاء في كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف): بعد البسملة هذا أمان الله تعالى وأمان

نبيه سيدنا محمد نبي الرحمة ﷺ وأماننا لفلان ابن فلان الفلاني ويذكر أشهر أسمائه وتعريفه، على نفسه وأهله وماله وجميع أصحابه وأتباعه وكل ما يتعلق به من قليل وكثير وجليل وحقير أمانا لا يبقى معه خوف ولا جزع في أول أمره ولا آخره ولا عاجله ولا آجله يخص ويعم ويصان به النفس، والأهل، والولد، والمال وكل ذات اليد. فليحضر هو، وبنوه، وأهله وذووه، وأقربوه، وغلمانه وكل حاشيته، وجميع ما يملكه من دانيته، وقاصيته وليصل بهم إلينا ويفد على حضرتنا في زمام الله وكلائته، وضمان هذا الأمان له ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ألا يناله مكروه منا ولا من أحد من قبلنا ولا يتعرض إليه بسوء ولا أذى ولا يرفق له مورد بقذى وله منا الإحسان والصفا بالقلب واللسان والرعاية التي تؤمن سربه، وتهني شربه ويطمئن بها خاطره ويرفرف عليه كالسحاب لا يناله إلا ماطره فليحضر واثقا بالله تعالى وبهذا الأمان الشريف، وقد تلفظنا له به ليزداد وثوقا ولا يجد بعدها سوء الظن إلى قلبه طريقا وسبيل كل واقف عليه إكرامه في حال حضوره وإجراؤه على أحسن ما عهد من المودة، وليكن له ولكل من يحضر معه وما يحضر أوفى نصيب من الإكرام وتبليغ قصارى القصد ونهاية المرام والاعتماد على الخط الشريف أعلاه" (١٣٥).

كما يتضح مما تشير إليه بعض المصادر والمراجع الإسلامية أن هؤلاء اللاجئين كان أمامهم الكثير من الفرص ليجدوا أعمالا وسبلا للمعيشة في البلاد التي لجؤوا إليها، بل إن بعض هؤلاء اللاجئين استقر بصفة نهائية في البلاد الإسلامية وأداروا ظهورهم للإمكانيات المقدمة لهم من قبل الفرنجة للعودة على مساقط رؤوسهم (١٣٦).

وإذا كانت السلطات الإسلامية قد سمحت لأبناء الدول المعادية لها بحق اللجوء السياسي، فمن الواضح أن جهازها للمخابرات كان يستعلم عن طالبي حق اللجوء السياسي في بلادهم قبل إعطاء الأمان لهم، والوفود إلى أراضيها، وذلك عن طريق (العيون) المنتشرين في طول البلاد وعرضها، وخصوصًا البلاد التي وفدوا منها، فما أكثر ما نقرأ في المصادر المعاصرة أمثال العبارات التالية: "وصل الخبر" و"وصلت الأخبار"، و"وصلت رسالة من القصاد"، "وصلت رسالة من

النصحاء"، وهؤلاء العيون كانوا ينقلون الأخبار من البلاد البعيدة والقريبة للسلطان في مصر. ليس هذا فحسب، بل إن السلطان كان يكلف بعض كبار دولته الذين يثق فيهم وفي إخلاصهم بالخروج إلى أطراف حدود دولته، لاستقبال هؤلاء اللاجئين وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه، والمكوث معهم بعض الوقت بحجة انتظار تعليمات السلطان للسماح لهم بالقدوم عليه في العاصمة، وفي تلك الأثناء يقومون بتقصي الحقائق والأسباب التي دفعتهم إلى اللجوء لدولة السلطان، ثم إخبار السلطان بكل ما يصلون إليه من معلومات (١٣٧).

ولم تكن السلطات الإسلامية تكتف بذلك، فبعد السماح للاجئين السياسيين بالقدوم إلى حضرة السلطان، ومقابلتهم أو مقابلة ممثليهم، فإنهم كانوا يوضعون تحت عيون جهاز المخابرات العامة للدولة، حيث تشير بعض المصادر المعاصرة إلى حرص السلطات الإسلامية الشديدة في عدم تقريب كل من أتاها هاربا من عند ملك من الملوك، والحذر من إفشاء الأسرار أمامهم ومراقبتهم، وعدم السماح لهم بالاختلاط بالجند، مع فرض نوع من شبه العزلة عليهم، وإنزالهم في أماكن مخصصة لهم بحيث يجعلون عليهم بعض العيون الذين لا ينقطعون عن زياراتهم، والتحدث، والتودد إليهم بكل السبل التي تمكنهم من التعرف على حقيقة نواياهم، ثم يخبرون السلطان بحقيقة أمرهم (١٣٨).

عاشرًا: المترجمون كرواد للحوار الحضاري

الحوار الحضاري بين المسلمين والفرنج عصر الحروب الصليبية يأتي على رأس المهام التي قام بها "المترجمون" في العصور الوسطى بوجه عام، وعصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) بوجه خاص، باعتبارهم موظفين في ديوان الإنشاء الذي هو أشبه ما يكون بإحدى وزارات الخارجية في الدول الحديثة. وقد بلغ من اهتمام سلاطين المماليك بهذا الديوان أن عينوا له رئيسا من رجال العلم والقلم، وهو الذي عرف في مصطلح ذلك العصر باسم كاتم السر، أو كاتب السر، أو صاحب ديوان الإنشاء، والذي كان من أهم اختصاصاته الإشراف أو (النظر) على الأشخاص الذين يقومون باستقبال السفراء ورسل الملوك

الذين يفدون إلى عاصمة السلطنة في القاهرة، هؤلاء الأشخاص هم الذين اصطلح على تسميتهم بالمهمندارية، كذلك كان من اختصاص صاحب الديوان الإشراف على جهاز الاستخبارات بما يضمه من "عيون" و"جواسيس" و"قصاد" و"ضباط أمن"، بالإضافة إلى الجهاز الخاص بالمترجمين(١٣٩)، هؤلاء المترجمون كانت لهم مكانة سامية ومرموقة داخل هذا الجهاز الإداري وخارجه، وتعتبر المهام الموكولة لهم من المهام الكبرى، حيث جرت العادة في ديوان الإنشاء عند وصول رسالة من أحد الحكام أو الملوك أو أمراء الدول التى لها علاقات بدولة سلاطين المماليك، أن يقوم رئيس الديوان بتسلمها وفحص أختامها ثم فتحها، وتسليمها لواحد من جهاز المترجمين يجيد اللغة المدونة بها الرسالة لترجمتها بعد قراءتها، ويدون الترجمة في ورقة يرفقها بالرسالة (١٤٠). على أن يقوم مترجم آخر يجيد لغة الرسالة نفسها وربما في منصب أو مرتبة أعلى من المترجم الأول بمراجعة الترجمة الأولى ليتأكد من صحتها، وكنوع من التدقيق في كل كلمة تحتويها الرسالة، وخصوصًا الرسائل القادمة من أشخاص مسيحيين أو غيرهم من أهل الذمة، لأنهم يخاطبون سلطان المسلمين، فربما تنطوي إحدى الرسائل أو كلها على عبارة من العبارات يغفل المترجم الأول عن ذكرها، فيذكره بها المترجم المراجع (١٤١). ثم تعرض الرسالة على رئيس الديوان ليعرضها بعد الإطلاع على ترجمتها على السلطان ليضع عليها توقيعه وما يراه من رد مناسب، ثم تحفظ هذه الرسائل في ديوان الإنشاء، وتعمل لها الفهرسة اللازمة في قسم المحفوظات على يد شخص أطلق عليه اسم "الخازن"(١٤٢). والذي يقوم عادة بعمل ملخص لكل رسالة يتضمن محتواها، واسم مرسلها، وتاريخ وصولها، وتاريخ كتابتها، واسم المترجم الذي قام بترجمتها، والمراجع للترجمة، ثم يحفظها للاستعانة بها عند الحاجة لذلك(١٤٣).

والحق يقال في أن من يتتبع الهدن والمعاهدات والاتفاقيات التي تم توقيعها بين سلاطين المسلمين وحكام وأمراء الفرنج من أبناء الغرب الأوربي زمن الحروب الصليبية، سوف يقف على مدى تطور الدبلوماسية العربية، وما تضمنته من حوار حضاري بين الطرفين، والأهم من ذلك هو الجهد الذي بذله كثير من المترجمين في هذا الحوار واستمراره، ذلك أن تلك الهدن أو الاتفاقيات لم تكن سوى المرحلة

الأخيرة والختامية لجهود هؤلاء المترجمين، وهي الشاهد على دورهم الدبلوماسي الجاد، وما لاقوه من عناء لكي يمهدوا لعقد تلك المعاهدات والاتفاقيات، مع الوضع في الاعتبار أنهم في عملهم هذا كانوا يعملون في نطاق قواعد وشرائع وقوانين وتقاليد لم يكن مسموحًا لهم بالخروج عنها، وتنفيذها بكل دقة وسلاسة في نفس الوقت (١٤٤).

وينبغي أن نضع في اعتبارنا أيضا من خلال ما نراه ونسمعه في وسائل الإعلام أيامنا هذه أن دور المترجمين أثناء المفاوضات والتمهيد لعقد الاتفاقيات لم يكن قاصرا على مجرد الترجمة. فهم أولا وأخيرا مبعوثون رسميون يمثلون السلاطين والحكام الذين يختارونهم ويكلفونهم بذلك العمل وتلك المهمة. كما أنهم تحملوا كثيرا من الأعباء البدنية والنفسية، وأظهروا كثيرا من مجالات الكياسة واللباقة والذكاء في أحاديثهم مع مختلف أطراف المفاوضات، وأنهم ربما أمضوا شهورًا في حوارهم مع الأطراف الأخرى، وأنهم كانوا يحملون أوراق اعتماد من قبل السلطان الذي كان يفوضهم في تلك المفاوضات (١٤٥).

وسنضرب بعض الأمثلة على ذلك للتدليل على ما ذهبنا إليه، وليكن أول تلك الأمثلة ما وقع عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م في أخريات العصر المملوكي، ففي عهد السلطان قانصوه الغوري(١٤٦) (٩٠٦-٩٢١هـ/١٥٠١-١٥١٦م)، واتخذ جماعة فرق الرهبان الفرسان العسكرية المعروفة باسم الاسبتارية (Hosptallers) من جزيرة رودس قاعدة لهم بعد طردهم من بلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، يشنون منها سلسلة من الإغارات على السفن التجارية المملوكية وهي محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن، بقصد عرقلة المجهود الحربي الذي تقوم به سلطنة المماليك لمواجهة خطر البرتغاليين(١٤٧)، فاختار السلطان كبير المترجمين ويدعى تغري بردي وأرسله لمباحثة المسئولين في جمهورية البندقية بإيطاليا، نظرًا لمصالحها التجارية في سلطنة المماليك، لإمداده بالأخشاب والأسلحة لبناء قوة بحرية تمكنه من متابعة الحرب ضد البرتغاليين، وفي طريقه إلى البندقية، مر تغري بردي بجزيرة رودس للتفاوض مع رئيس جماعة فرسان الاسبتارية في أمر استعادة السفن المملوكية التي كانوا قد استولوا عليها العام الماضي وهو عام

٩١١هـ/١٥٠٥م، وما كان عليها من متاجر. إلا أنه لم يحقق أي نجاح يذكر في تلك المهمة بسبب غطرسة هؤلاء الاسبتارية، ومع هذا فقد نجح في مجال آخر وهو شراء عدد كبير من أسرى المسلمين المحتجزين بالجزيرة، وكان معظمهم من المغاربة، وبلغ مجموع ما دفعه ثمنا لافتكاك أسرهم نحوا من خمسين ألف دينار(١٤٨). ولما لم يجد أملا في الوصول إلى حل بالنسبة لمسألة السفن، غادر رودس في طريقه إلى البندقية وهناك أمضى فترة غير قصيرة انتهت فيها المفاوضات بينه وبين المسئولين البنادقة بعقد اتفاق تجاري يتم بمقتضاه مساهمة البندقية في بناء الأسطول المملوكي، دون أن يؤدي ذلك إلى إظهار البندقية أمام الأوربيين بمظهر الدولة التي تساعد علانية سلطنة المماليك، ثم سافر تغري بردي من البندقية إلى فلورنسا في إيطاليا أيضا، حيث أجرى العديد من المفاوضات التي تكللت بنجاحه في عقد اتفاق تجاري مماثل لاتفاقه مع البندقية، ثم عاد إلى القاهرة بعد غيبة عنها استمرت سنة ونصف السنة(١٤٩).

كذلك كان لكبير أو رئيس المترجمين دوره المهم ومكانته التي اعترف بها الأصدقاء، والتي لم تشر إليها المصادر التقليدية المعاصرة، بل جاء ذكرها في الخطاب الذي زود به "دوق" أي حاكم البندقية سفيره في المفاوضات التي سبقت ومهدت لعقد الاتفاقية التي تم بموجبها تنازل سلطنة المماليك في القاهرة عن جزيرة قبرص في البحر الأبيض المتوسط سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م للبندقية، عندما أوصاه بقوله: "ويوجد ترجمان للسلطان اسمه تانز بايد "تغري بردي" نعلم أنه من ذوي الخبرة والنفوذ وعلى قدر كبير من الدهاء، يَحْسُنُ أن تحصل على معونته لتسهيل مهمتك المنشودة"، وهذا النص يوضح في صراحة تامة دور هذا الرجل في الحوار الذى انتهى بموافقة السلطان المملوكي على ما قامت به البندقية من رفع علمها على تلك الجزيرة في مقابل تعهد البندقية للسلطان بتعويضه ودفع الجزية المقررة له على قبرص سنويا(١٥٠).

ومن المفيد أن نذكر أن دور المترجمين لم يكن قاصرًا على إجراء الحوار والنقاش فحسب، بل شمل أيضًا قيامهم بتقريب وجهات نظر الوفود التي تسعى

للتفاوض. هذا إلى جانب دورهم في كل محاولة يقوم بها المبعوثون لتعديل نص أو أكثر من نصوص المعاهدات التي سبق توقيعها وبخاصة في الأوقات التي يجد أحد الطرفين أن الفرصة مواتية له لتحقيق امتياز ما، أو إضافة بند جديد يحقق له بعض المصالح. كذلك كان لهم دورهم في عملية فسخ المعاهدات، حيث كان يتم إيفادهم إلى الطرف الآخر وإبلاغه شفهيًا بذلك الفسخ والأسباب التي يراها أحد الأطراف موجبة للفسخ، وهذه تنسب لتصرفات قام بها الآخر "المفسوخ عليه" من ظهور ما يوجب نقض العهد، كما كان على الفاسخ إقامة الحجة على المفسوخ عليه وذكر القلقشندي نصًا رسميًا يقتدي به في الكتابة في حالة الفسخ جاء فيه: " هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان، استخارة تبين له فيها غدر الغادر، وأظهر له فيها سر الباطن ما حققه الظاهر فسخ فيه على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة التي كان آخر الوقت الفلاني آخر مدتها".

لذلك كان لهم دورهم في المفاسخة فهي كما يفهم من اللفظ تكون من الجانبين، المتفقين على إلغاء تلك المعاهدة أو الاتفاقية حيث تتم المراسلات بين الجانبين، ويحاول كل طرف منهما أن يحمل الطرف الآخر سبب خرق الهدنة أو الاتفاق أو نقضها، وصورة ما يكتب في تلك المعاهدة أو الاتفاقية " هذا ما اختاره (فلان وفلان) من فسخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي آخر مدة كذا اختار فسخ بنائها ونسخ أنبائها ونقض ما أبرم من عقودها وأكد من عهودها ... وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر، ومن سمع، ومن نظر، وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا (١٥١).

ومما يؤكد دور المترجمين في الحوار الحضاري بشكل ملفت للنظر لكل من يدرس المعاهدات المختلفة التي تم توقيعها بين المسلمين والفرنج في عصر الحروب الصليبية، أن المفاوضات المختلفة التي شارك فيها هؤلاء المترجمون كانت تحدث بأسلوب شِفهي، وإن كانت هناك بعض حالات حملوا فيها مكاتبات مدونة، مما ساعدهم على صياغة الأشكال النهائية والمتفق عليها من كبار حكام الطرفين. والمتأمل لصيغ الاتفاقيات والمعاهدات يجد أنها قد خرجت في أشكال تميزت بسوء العبارة في العصر الأيوبي بوجه عام، والعصر المملوكي بوجه خاص. وقد أغنانا

القلقشندي عن البحث عن السر في ذلك عندما ذكر أن ذلك راجع إلى طريقة التفاوض والاتفاق على بند من المعاهدة أو الاتفاق، وتدوينه بشكل فوري دون انتظار لمراجعة الأسلوب خوفا من مظنة التعديل[١٥٢]. ومن الناحية الزمنية قد يستغرق الحوار أو المناقشة جلسة واحدة أو تمتد إلى عدة جلسات، وذلك حسب المشاكل التي تتناولها المفاوضات مما يدعو إلى تكرار اللقاءات، مع استغراق الوقت اللازم لدراسة ومراجعة الترجمان المفاوض للسلطات العليا في بلاده، لعرض الاتفاقيات المبدئية، إذ كان من الضروري الرجوع إلى تلك السلطات العليا لعرض واعتماد ما توصل إليه من اتفاق والحصول على الموافقة على بنوده [١٥٣].

كان الاهتمام بالمبادئ الإسلامية في ساحة الحوار الفكري هو الدعامة الأساسية في التعامل مع الآخرين، تدل عليه العلامات البارزة من الناحية القانونية التي تظهرها المواثيق والاتفاقيات الدولية، والتي كانت تعقدها سلطنة المماليك مع غيرها، والتي تؤكد على أن توجيه مسار العلاقات الخارجية كان ولابد أن يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين لا غنى عنهما، والمفترض أن سلطنة المماليك كانت تعير هذه الأمور اهتمامًا يأتي في مقدمة أسبقياتها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى احتفاظ سلطنة المماليك بهويتها الدينية والثقافية والحضارية وسط أمواج من المؤثرات المغايرة أو التي لا تتفق بالضرورة مع الجذور الثقافية والحضارية للمسلمين. بحيث كان يتم تكليف مترجمين مسلمين للقيام بالترجمة، مع تكليف عدد آخر منهم بقراءة الصيغ النهائية ومراجعتها قبل أن يصدق عليها السلطان، وكانت تعد نسختان من المعاهدة ليحتفظ المسلمون بواحدة والفرنجة بالأخرى، وهناك ما يفيد بأن كلا النسختين كانت تكتب بالعربية ومعها النص الفرنجي، ومما يدل على ذلك ما ورد بشأن المعاهدة بين السلطان المنصور قلاوون ورسل ملك أرجون ٩٨٩هـ/١٢٨٩م، فقد جاء في (تشريف الأيام والعصور) " إن هؤلاء الرسل أقاموا أيامًا حتى تحررت نسخة هدنة كتب رسله نسختها بأيديهم بالعربي والفرنجي، واستصحبوها معهم إلى مخدومهم، وكتبوا خطوطهم على النسخة التي بالعربي، وقد تدركوها حتى يتوجهوا إلى مخدومهم..) كما جاء في ذات الصدد هدنة أخرى عقدها السلطان السابق الذكر مع الفرنج الجنوية

في (٦٨٩/١٢٩٠م)، فقبل عرض النص النهائي لها على السلطان يكون قد قرأه أحد كبار المترجمين وراجعه من كان منهم [١٥٤] ، وكذلك فيما يرويه المؤرخ شافع ابن علي عن معاهدة سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، بين نفس السلطان وبين الاسبتارية (Hosptallers) بحصن المرقب بالشام، فقد قام شافع بالترجمة لأن السلطان كان لا يجيد سوى اللغة التركية، وتمت مراجعة الترجمة، ثم قام شافع بكتابة الصيغة النهائية بعد موافقة السلطان على ما جاء بها [١٥٥].

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه في حالة اضطرار السلطات الإسلامية إلى إرسال وفد يمثلها في إحدى المفاوضات التي قد تنتهي بعقد اتفاق ما أو هدنة معينة، فإن هذه السلطات عادة ما تحرص على أن يضم الوفد المسافر والذي يمثلها بعض رجال الدين أو أحدهم على الأقل، ليكون مرجعًا في الأمور الدينية التي قد تعرض لوفد المفاوضين. مثال ذلك ما يرويه لنا النويري عن أن السلطان الظاهر بيبرس قد أرسل وفدًا إلى الفونسو العاشر (Alphonse X) صاحب إشبيلية[١٥٦] ردًا على سفارته، وكان من ضمن الوفد الفقيه عماد الدين حسين بن همام مرتضى[١٥٧]. وبعد ذلك بعدة سنوات وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون "ت٧٤١هـ/١٣٤٠م" ، وفي سفارته التي أرسلها إلى ملك قشتالة[١٥٨] فرناندو الرابع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م ردا على سفارته، ضم الوفد بعض المترجمين ممن يجيدون لغة أهل قشتالة، وبرفقتهم أحد فقهاء المسلمين، وقد قوبل هذا الوفد هناك بكل مظاهر الود والترحاب[١٥٩].

ومما لا شك فيه أنه كان لهؤلاء المترجمين دورهم الفعال جدًا في جهاز الاستخبارات ومقاومة الجاسوسية، والمشاركة بنصيب وافر في ذلك، إلى جانب قيامهم بدور فاعل في عمليات الجاسوسية المضادة والتي كان يقوم بها أبناء الغرب الأوربي، أثناء زيارتهم للأماكن المسيحية المقدسة في الشرق، وتجنيد بعضهم لخدمة جهاز المخابرات الإسلامي. وقد نجحوا في ذلك فعلا. إذ تشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري قد كان له أعوان من الفرنج يراسلونه باستمرار، ويخبرونه بما يحدث من تحركات الصليبيين، وعند وصول إمدادات لهم من الغرب الأوربي حتى يكون على علم بأوضاعهم، بل إن الأمر

تعدى ذلك إلى إعلامه بكل ما يستجد من أحوال ملوك الغرب الأوربي. ويؤكد لنا الرحالة فريسكو بالدى دور المترجمين في هذا المجال من أنه أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية(١٦٠) مع الحجاج المسيحيين، فإن المترجمين بها أخذ يسألهم عن كثير من الأشياء، عن عاداتهم وتقاليدهم ومصادر ثرواتهم، وعن البابوية والأباطرة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم كراهية المسلمين للغرب عامة، أو معاداة المسيحية بصفة خاصة، بل وعدم معاداة الديانات والعقائد الأخرى أو زرع النفور ورفض التعايش معها. كما أنه كان يتم الاهتمام بهؤلاء الحجاج المسيحيين في كل مكان ينزلون فيه، ويتم توفير الحماية اللازمة لهم، وتوفير كل وسائل وسبل الراحة المكنة، بهدف تعميق لغة الحوار الحضاري (١٦١).

ومما تجب الإشارة إليه أيضا أن منصب كبير المترجمين في القاهرة لم يكن قاصرًا على رئاسته لجماعة المترجمين المنتشرين في طول البلاد وعرضها، وخاصة البلاد التي بها مزارات مسيحية، يفد إليها أبناء الغرب الأوربي المسيحي لزيارتها وغيرها من بلدان الشرق المسيحي، فيستضيفهم في منزله الكبير في العاصمة، ويجري كثيرا من الحوارات معهم، ويقوم بمصاحبتهم إلى القصر السلطاني ليعرضوا ما معهم من رسائل ملوكهم وأباطرتهم ورجال دينهم، بل كان يقوم بالترجمة في حوارهم مع السلاطين ، وترجمة مشافهة السلاطين لملوكهم وأباطرتهم (١٦٢).

ويشهد تاريخ الحروب الصليبية، وما نجم عنه من ازدهار في عمليات التبادل التجاري بين الشرق والغرب على أنه لا توجد حضارة مكتفية بذاتها، مستغنية عن غيرها، وأنه كلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص النمو والاكتساب والتعلم والتطور، وهذا ما حدث عندما استقرت أعداد كبيرة من أبناء الغرب الأوربي في كثير من المراكز التجارية والموانى الإسلامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. ولأن الحضارة نسيج متداخل متفاعل للنشاط الإنساني في كل المجالات الطبيعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والدينية والعلمية، فقد كان على أبناء الغرب الذين استقروا في البلدان الإسلامية لممارسة نشاطهم التجاري أن يختاروا أحد المترجمين لمعاونتهم في عمليات البيع والشراء، وتعريفهم بقوانين

البلاد ونظمها وتقاليدها، ومساعدتهم في إتمام الصفقات التجارية المختلفة، إلى جانب اكتسابهم كثيرًا من الخبرات الأخرى (١٦٣).

كما أنه ينبغي أن نشير إلى أن المترجمين كانوا معتمدين من قبل الحكومة، ومحل ثقة وتقدير من جميع الأطراف المشتغلة بالتجارة، وليس أدل على ذلك مما جاء في وثيقة محفوظة في الأرشيف البندقي بإيطاليا والمؤرخة في سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م، مما يوضح لنا دور هؤلاء المترجمين في المعاملات المالية بين الأجانب والسلطات الإسلامية، فقد ذكرت الوثيقة أن القنصل البندقي في الإسكندرية قد قام بتسليم مترجم السلطان ستة آلاف دينار ليقوم بتوصيلها إلى السلطان في القاهرة، وكان ذلك وفق اتفاق سابق. وفي وثيقة أخرى بتاريخ سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م يقسم خمسة من المترجمين أمام والي ثغر الإسكندرية وأمام مجلسه من الفقهاء على القيام بتبليغ الوالي بشحنات البضائع التي تصل إلى ديوان الخمس، أي ديوان الجمارك فور وصولها وبدون تأخير، هذه الوثيقة إن دلت على شيء فإنما تدل على خطورة مركز المترجمين في المعاملات المالية (١٦٤).

وإلى جانب قيامهم بتسهيل عقد الصفقات التجارية بين التجار الوطنيين وتجار المدن الأوربية المختلفة، فإنهم قاموا بدور الوسيط التجاري في تزويد هؤلاء التجار الأجانب بكثير من مستلزمات حياتهم اليومية من طعام وشراب وغيره، ولابد أنهم قاموا بهذا الجهد نظير ما كانوا يحصلون عليه من مبالغ على شكل سمسرة أو عمولة من التجار الوطنيين، والذين رحبوا بهذا الدور لما فيه من ترويج لسلعهم (١٦٥). كذلك يفهم مما جاء في الخطاب الذي أرسله سفير دوق البندقية إلى بلاده في ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أن كبير المترجمين "تغري بردي" في عهد السلطان الأشرف قايتباى(١٦٦) "٨٧٣-٩٠٢هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م"، قد لعب دور الوسيط التجاري بين الداودار الكبير في ذلك الوقت وبين تجار البنادقة، فضلا عن كونه قد بذل مساعيه لتأمين سلامة وصول السفن الروديسية وعليها البضائع الخاصة بالدوادار الكبير والمصدرة من مصر (١٦٧).

أضف إلى ذلك ما ذكره أحد الرحالة اليهود الذي زار مصر قرب نهايات

العصر المملوكي، وهو موشلام بن مناحم الفولتيري من أن كبير المترجمين في القاهرة أكرمه إكراما بالغا في سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، حيث منحه توصية تم بمقتضاها منحه إعفاءً من دفع الرسوم الجمركية على الأحجار الثمينة التي كانت في حوزته أثناء زيارته لمصر ، فضلا عن أنه سهل له مهمة بيعها، وكانت هذه الرسوم تقدر بحوالي ١٠٪ من قيمة تلك الأحجار الثمينة حسب جمارك ذلك الوقت [١٦٨].

ونقف على بعد آخر لدور هؤلاء المترجمين حيث إن كثيرًا من أبناء الجاليات الأوربية المقيمين والموجودين في البلاد كانوا يستعينون ببعض المترجمين في عرض شكواهم على السلاطين لفض ما قد ينشأ بينهم وبين التجار المحليين من مشاكل وخلافات، كما أنه في بعض الأحيان قد يتعرض الترجمان للقتل، وهذا ما أورده المؤرخ ابن حجر العسقلاني عند ذكره لحوادث (سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م) وفيها، في صفر حضر شخص أفرنجي عند بركة – قبل كائنته – فادعى على شخص بحق له في زعمه فلم يثبت عليه شيء فأخرج الفرنجي سكيناً فضرب بها الترجمان – واسمه عدنان – فقتله، فأمسك الفرنجي وأحرق [١٦٩].

حادي عشر: الحوار الثقافي ودوره في الحوار الحضاري

لم تكد الحرب الصليبية الأولى تنتهي حتى كانت السحب التي تفصل بين الفريقين قد انقشعت، وانمحت الصورة القديمة التي كانت في مخيلة الصليبيين عن المسلمين، فلم يعودوا يرونهم جنودا جبناء أو قساة غلاظ القلوب، أو كفرة عباد أوثان، بل شهدوا من شجاعتهم في القتال، ومن ورعهم في الصلاة ، ومن سماحتهم في معاملة أهل الأديان الأخري ما أطلق ألسنتهم بالإعجاب والتقدير، بل والاقتباس من حضارتهم والتحول إليها [١٧٠] ، بل إنهم دهشوا غاية الدهشة حين وجدوا أصحاب الأرض يفوقونهم علمًا وحضارة [١٧١].

في العصر الحديث هناك العديد من الكتاب والكتابات المنصفة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى أثر الحوار الثقافي مع الشرق في أبناء الغرب الأوربي، ولنأخذ مثالا واحدا بالمؤرخ الروسي ميخائيل زابوروف (Micheal Zabowrof) عندما

يقول: "لا ريب في أن الشرق العربي وثقافته بأوسع معاني هذا المفهوم قد أثرا تأثيرًا بالغًا في شتى جوانب الحياة المادية والروحية في المجتمع الإقطاعي الغربي". والدليل واضح على ما دار من حوار ثقافي هو تأثيره الواضح ليس على مستوى الفرنج في بلاد الشام طوال فترة الحروب الصليبية، بل وفي الغرب الأوربي، "فمنذ أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، مثلا، شعر الأوربيون الغربيون أنهم دخلوا إلى عالم جديد بالنسبة لهم من القيم الثقافية، وقد أدت إلى ارتفاع مستواهم الثقافي". وعلى هذا، فإن "الحملات الصليبية كانت في هذا المجال مثمرة على وجه الخصوص" (١٧٢).

ومن الطبيعي كذلك أن يحاول كل فريق التعرف على الفريق الآخر، حاضره وماضيه، هذا بالرغم من أن معارك الحروب الصليبية لم تكن هي الجانب الوحيد في تلك المواجهة الحضارية الطويلة المضنية، إلا أن طبيعة المعارك الحربية دائما تجعلها أعلى الأحداث التاريخية حسا وصوتا (١٧٣). ويهمنا في هذه الدراسة أن نرصد ما كان من حوار ثقافي بين طرفي الصراع في تلك الحقبة من تاريخ أمتنا العربية، وهو أمر يتفق مع منطق الأحداث بحكم التعامل اليومي والتعايش الذي فرض نفسه على الطرفين. جميعا، من تخوم فيليقية شمال بلاد الشام وحتى البحر الأحمر في الجنوب بطول حوالي خمسمائة وثلاثين ميلا (١٧٤). هذا بالرغم مما ذكره بعض مؤرخينا من أنه كانت هناك عوائق منعت الحوار والتبادل الثقافي بين الطرفين على نطاق واسع، لأن الفرنج عندما وصلوا إلى الشرق وجدوا أنفسهم أمام حضارة أعلى من حضارتهم، كما أن المسلمين بدورهم نظروا إليهم على أنهم قد قدموا من بلاد بعيدة، وأنهم على درجة من الوحشية والتخلف الحضاري (١٧٥). أو أنهم أتوا إلى الشرق أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي محاربين لا طلاب علم، وأن ظروف إقامتهم في بلاد الشام في القرنين التاليين كانت صعبة وسط محيط من الأعداء يهاجمونهم ويتربصون بهم الدوائر، مما لم يترك لهم مجالا للاستقرار الهادئ الذي هو شرط أساسي لطلب العلم (١٧٦).

إلا أننا نرى أنه ما كادت الجموع الفرنجية "الصليبية" تحرز النصر المؤقت، حتى استقر بهم المقام في المدن الساحلية من بلاد الشام، وبعض السهول الداخلية،

وأقاموا فيها مملكتهم في بيت المقدس، والإمارات الثلاث، ثم ما كادوا يشعرون بطيب الهواء، واعتدال المناخ، وجمال الطبيعة، وعظيم الثراء، حتى ترك ذلك كله أثرًا، جعلهم يطمئنون إلى البلاد والسكنى فيها، بل ويغيرون نظرتهم الخاطئة إلى البلاد وأهلها ويقدرون ما يتمتعون به من ثقافة عالية، ويقيمون أفضل العلاقات الثقافية معهم(١٧٧). هذه العلاقات الثقافية أو الحوار الثقافي تمثل في العديد من النواحي التي نذكرها على الترتيب التالي:

١ - دخول كثير من المصطلحات في لغة الآخر

من المعروف أن اللغات الحية شأنها شأن كثير من الكائنات الحية، تؤثر في غيرها وتتأثر بها، ومن مظاهر تأثرها بغيرها ما يلحظه علماء اللغات في نصوصها المختلفة من وجود ألفاظ دخيلة من لغات أخرى، مثال ذلك لغتنا العربية واللغات الأوربية المختلفة في أوقات الحروب الصليبية، حيث دخلت فيها كثير من الألفاظ الدخيلة والمصطلحات المختلفة. والحقيقة أن المصادر المعاصرة لحقبة حروب الفرنج أو الحروب الصليبية سواء العربية منها أم اللاتينية صامتة تمامًا فيما يتعلق بالطرائق اللغوية التي اتخذها كل طرف من الطرفين الإسلامي والفرنجي في نقل الألفاظ والمصطلحات من لغة أخرى إلى لغته. فهل تم نقل لفظ من الألفاظ أو مصطلح من المصطلحات بطريقة نطقه الأصلية، وهي طريقة النقل الصوتي (phonetic transcription) ويقصد بها التعبير عن الأصوات نطقًا وسماعًا بالرموز الكتابية بشكل دقيق أي تطابق الرمز المكتوب للصوت المنطوق. ولا يخفى على أي باحث على قدر معقول من الدراية ببعض اللغات الأجنبية أو إحداها بالمشكلات التي تواجه ناقل مصطلح ما من لغة أجنبية إلى لغته ومنها كيفية نقل أصوات تلك اللغة إلى أصوات لغته، ولا سيما وأن لكل لغة نظامها الصوتي الذي يختلف كثيرا أو قليلا عن نظام لغة الآخر.

ويرصد البعض كلمات عديدة نقلها الصليبيون إلى لغاتهم من خلال وجودهم في الشرق الإسلامي بطريقة النقل الصوتي السابقة ومنها على سبيل المثال لا الحصر كلمة "جلاب" وهو شراب من بعض الأعشاب العطرية، ونجدها في الإنجليزية (Julab)، وفي الفرنسية (Juleb). كما أن كلمة "جرة" نجدها في الإنجليزية (Jar)

وفي الفرنسية (Jarre) وفي الإيطالية (Giarro) و(Giaro)(١٧٨). ومن المحتمل أن كلمة (Villanus) وجمعها (Villani) كانت ترجمة لكلمة فلاح وجمعها فلاحون مع إضافة مقطع أخير لها كما في اللاتينية، وفي الإنجليزية (Villein) (١٧٩).

وكلمة كوردون (Cordon) والتي مازلت مستخدمة في اللغة العربية في بعض البلدان حديثا، للتعبير عن حدود المدينة، أو النطاق المسموح به من المباني في ضواحي المدينة (١٨٠). وكلمة (Fonticum) أو (Fonde or Funda) التي ما هي إلا تحريف في النطق للكلمة العربية "الفندق"، وفي المناطق التي خضعت للصليبيين أي في الشرق الفرنجي، فإن هذه الكلمة ربما كانت تعني الخان بما فيه من أماكن معدة لتخزين البضائع وإقامة التجار وقد تعني القيسارية وربما تعني مجموعة الأسواق المجتمعة في مكان واحد، كما أن هذه الكلمة قد لا تعنى فقط الأسواق بل التنظيم نفسه "محكمة السوق" ومبناها الذي كان يتوسط سوقا مثل سوق عكا (١٨١). كما تسربت في مجال الطب بعض كلمات إلى الفرنجة من اللغة العربية ونطقوها كما هي، مثل كلمة الدوسنتاريا (dysentery) وهي التي مات بها الملك أملريك (Amairic) سنة "٥٦٩هـ/١١٧٤م" في الحادي عشر من شهر يوليو منها، ومن الكلمات كذلك كلمة مرض البرص (leprosy) (١٨٢).

ومن الكلمات التي دخلت اللغات الأوربية كلمة التراجمة (the dragomen) ومفردها ترجمان (dragoman أو tarjuman) وهو أحد الأشخاص الذين استخدمهم أصحاب الإقطاعات في تعاملهم مع السكان المحليين، لنقل أوامرهم إلي السكان العرب في القرى التي خضعت لهؤلاء النبلاء، إلى جانب أن عددا كبيرا من هؤلاء التراجمة لدى الطوائف الدينية العسكرية كانوا من سكان المدن(١٨٣). وكلمة المحتسب (muhtasibe) وهى مصطلح عربي لصاحبه اختصاصات عديدة، والذي كان عند الفرنج له اختصاصات الفايكونت "صاحب الشرطة"، ويشرف على أسواق اللحوم، ومحلات السمك، وبائعي الخبز والنبيذ وغيرها من محلات الطعام والشراب. ومن المصطلحات التي تم نقلها إلى الفرنجة صوتيا كلمة سكرتير وأضيفت لها مقطع لاتيني في آخرها وكانت تكتب (Secretarius)، وكلمة زعفران (Saffron)، والحناء

(Henna)، والحرير الدمشقي "الدمقس" (Damascus)، والخروب (Carobes)، والطحينة (Tahina)، وكلمة القيراط (Carat)، وكلمة "المتروكة" (Matruka) أي الأرض المستخدمة في المصالح العامة مثل الطرق وغيرها. وكلمة شيخ القرية والتي تساوى كلمة المختار أو رئيس القرية وسمي باسم (Rays) [١٨٤].

وترصد لنا المستشرقة الألمانية عددا كبيرا من المصطلحات التي تم نقلها صوتيا إلى اللغات الأوربية بوجه عام والألمانية بوجه خاص، نذكر منها: كلمة حلبى "نسبة إلى حلب" (Alppin)، والحناء (Alkanna)، والعنبر (Amber)، والنيلة وهي مادة للصباغ من نبات النيلة (Anilin)، وعسكرى (Askari)، والحشاشين أو جماعة الإسماعيلية (Assassine)، والبلسم (Balsam)، وطائر الباز المستخدم في الصيد (Beize)، والسّد (Cid)، وفقير (Fakir)، وفلوكة "قارب صغير" (Feluke)، وغزي وهو قماش من صنع غزة (Gaze)، والقند "عسل قصب السكر" (Kandis)، والقطن (Koton)، والحرير الموصلى (Musseline)، والأقة (Okka)، والصك "الشيك" (Scheck)، والشربات (Scherbet)، والتمر هندي (Tamarinde)، والسكر (Zucker)، وسكر القند (Zucherkand) [١٨٥].

ومن الكلمات العربية التى شاعت في اللغات الأوربية بطريقة النقل الصوتي كذلك أسماء بعض الأماكن ببلاد الشام علي وجه الخصوص، وإن كان قد شاب بعضها بعض الاضطراب لسبب ما أو لعدم وجود بعض الأصوات العربية في اللغة اللاتينية أو في اللغات الأوربية ، مثل كلمة "رفنيه" (Rafaniyah)، وطرطوسة (Tartosa)، وعرقة (Araqah)، وجبيل (Gibelet)، وأريحا (Jaricho)، وبير شابا (Bersheba)، التى أحلوها محل بيت جبريل، وكلمة نادر (Nadir)، وكلمة إكسير (elixir)، وكلمة الكيمياء (Chemise)، والكحول (alcohol)، والمرتبة (Mattress)، وكلمة أدميرال (Admiral)، والكوفية (alcove) [١٨٦]. وكلمة الكافور (Kampfer)، والتعريفة (Tariff)، والدينار (Dinar)، والحوالة (Aval) [١٨٧].

وإذا كانت هذه هي بعض الكلمات التي تسربت من العربية إلي اللاتينية أو اللغات الأوربية بطريقة النقل الصوتي، فإن اللغة العربية بها بعض الكلمات ذات

الأصل الأجنبي، وإن كان بعض مؤرخينا يتخذ هذا دليلا على أنه لا يوجد عربي واحد تكلم الفرنسية أو اللاتينية (١٨٨). إلا أننا نقول إن هذا القول غير منطقي ولا يتفق مع طبيعة الأحداث، ودليلنا على هذا ما تذكره بعض المصادر المعاصرة في حديثها عن الحيلة التي لجأ إليها السلطان صلاح الدين الأيوبي لإدخال المؤن إلى عكا، عندما حاصرها الفرنج في الحملة الصليبية الثالثة بقولها: " فأمر السلطان بأن أوسق مركب عظيم من "بيروت" واستكثر فيه من السلاح والأقوات والمقاتلة، وأظهر عليه زي الفرنج وشعارهم، وأخذ قومٌ من أسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين فتُرِكوا على ظهر المركب، وأنزل معهم في المركب جماعة من المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج ، وتزيوا بزي الفرنج، وحلقوا شعورهم، وأخذوا معهم خنازير، ورفعوا على قلع المركب صليبا، وأوهموا الفرنج أنهم واصلون إليهم نجدة من بلادهم، وأقلعوا داخلين إلى مرسى عكا، مسلمين على الفرنج بلغتهم، مبشرين لهم بأن وراءهم من المدد ما تُشَدّد به منتهم – أي تسدد به قوتهم– وتعز به نصرتهم، فلم يرتب المحاصرون بذلك، وأفرجوا لهم عن المرسى. فدخلوا عكا وأوصلوا إلى المسلمين بها، ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال وتمت الحيلة" (١٨٩).

كما يظهر واضحا خطأ هذا القول مما رواه الرحالة الفرنسي سيرجون مانديفيل (Sir john Mandeville) الذي زار القاهرة عام ٧٢١هـ/١٣٢٢م في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذي عمل كجندي ضمن مماليك هذا السلطان لمدة كبيرة حسبما يذكر هو ذلك، من أن السلطان اختلى به يوما، وأخذ يشرح له مساوئ كل من اليهود والمسيحيين الغربيين وكيف تحقق للمسلمين النصر عليهم، وذكر له السلطان كثيرا من الأمثلة عن أحوال الغرب الأوربي، مما أدهش مانديفيل، الذي سأل السلطان عن كيفية معرفته بكل تلك الأحوال، فكان رد السلطان عليه أنه يعرف كل هذا من خلال رسله الذين يرسلهم إلى كل البلاد متنكرين في هيئة التجار، يبيعون الأحجار الكريمة، والملابس الفاخرة وغيرها من الأشياء الأخرى التي يقبل عليها أبناء الغرب الأوربي، ولكي يعقدوا الصداقات ويتعرفوا على أحوال كل بلد منها، ثم قدم له السلطان أربعة من كبار أمرائه، والذين أخبروا مانديفيل بكل صغيرة وكبيرة عن بلده وعن كثير من بلدان الغرب الأوربي، تمامًا

كما لو كانوا أنفسهم من تلك البلاد نفسها، وكانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة وكذلك السلطان مما أثار دهشته (١٩٠). هذه الرواية بالرغم مما فيها من طرافة فإنها تدل على تبدل سلوك المسلمين تجاه لغة الآخر زمن الحروب الصليبية بوجه عام ومنذ العصر الأيوبي وكما سبق أن أشرنا وفي بدايات العصر المملوكي بوجه خاص. يؤكد ذلك ما يذكره أحد المؤرخين المعاصرين عن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣ هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) من أنه كان لديه بعض من يكتبون "بالقلم الفرنجي"، وهو يقصد بذلك من يعرفون اللغة اللاتينية أو الفرنسية، والذين ربما كانوا من السكان المحليين، وربما كانوا من الفرنج الذين أسلموا وعُرفوا باسم "المسالمة" والتحقوا بخدمة السلطان، واستفاد السلطان منهم في معرفة كل ما يدور بين الفرنج، ومن المرجح أنهم ونسلهم ظلوا يتقنون هذه اللغات وتمت الاستفادة منهم في ديوان الإنشاء(١٩١).

واللغة العربية زمن الحروب الصليبية وبعدها كان بها كثير من الألفاظ الدخيلة والتي نقلت إلى العربية بصيغتها الأصلية مع بعض التحريف أحيانا، مثل كلمة البرنس (Le Prince أو The prince)، والتي ذكرها كثير من مؤرخي الحروب الصليبية، وكان أولهم ابن شداد، والذي ذكرها على أنها تعريب صوتي واضح لكلمة الأمير في اللغتين الفرنسية والإنجليزية وقد تم نطقها على أنها "الإبرنس"، أو "البرونس" وإلى جانب هذه الكلمة فقد ذكر عدة كلمات أخرى بها بعض التحريف، مثل كلمة "الإسبتار" وهي تحريف واضح للفظ الفرنسي (Hospitallers) واللفظ الإنجليزي (Hospitallers) وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على إحدى فرق الرهبان العسكرية، وكذلك كلمة "الداوية" وهي الترجمة الحرفية لطائفة فرسان المعبد (Templiers)، بالإضافة إلى كلمة "القومص" وهي التعريب الحرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير الذي يرافق الملك في حروبه وتنقلاته (١٩٢).

ومن الكلمات التي دخلت العربية واستخدمها كثير من المؤرخين المعاصرين "مرمة" وجمعها "مرمات" مأخوذة من كلمة (Maremma)، ويبدو أنها إيطالية الأصل وهي من أعظم المراكب .. " وهي عادة ما تكون "مصفحة بالحديد لا

تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع . . .". ومن كلمات النقل الصوتي كلمة "سرجندى" (Sergeant) أي الجندى المشاة ، وكلمة "تركبولي" (Turcopole)، وكلمة "برجاس" (bourgeoisie) أي أحد أفراد الطبقة البورجوازية من سكان المدن كما أنها تعني أنه رجل تاجر، وكلمة "البسكند" أي (Viscount) وهو نائب الملك في البلد أو قائد الشرطة بها[١٩٣]. ومن المصطلحات الإنجليزية التي دخلت اللغة العربية وكان المؤرخون المسلمون على دراية بمعناها كلمة (Commandor) والتي عربت حسب نطقها إلى "كمندور"، وقد جاء ذكرها على سبيل المثال عند الحديث عن رئيس طائفة الداوية، باعتباره الآمر الناهى في طائفته فقيل "كمندور الداوية"، وكلمة "السنجال" وهي ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية (Senechal) المأخوذة من اللفظ اللاتيني (Senescallus) والجرماني (Siniscale) وهو الأقرب إلى لفظ السنجال ومعناها هنا النائب، أو الكفيل على حد التعبير العربي في ذلك العصر، والمقصود به أودو بوشيان نائب المملكة بعكا سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م [١٩٤].

ومن المصطلحات التي تم نقلها حرفيا كلمة "ألفونش" وهي التسمية العادية لكلمة "أدفونش"، تطلق على كل من ملك الأندلس وعاصمتها طليطلة [١٩٥] وبرشلونة ويعرف كذلك بالفونس[١٩٦]. وكلمة "إفرير" وهي الترجمة الحرفية للكلمة الفرنسية (Frere) ومعناها بوجه عام الأخ. وجمعها الإخوة، ومنها الإخوة الديوية (Les Freres templiers).

ومن الطرائق التي استخدمت في نقل المصطلحات طريقة النقل الصوتي الحرفي، أي كتابة لغة بحروف أخرى؛ ومنها كلمة "ريدا فرنس"(Roi de France)، أو الفرنسيس ملك الفرنج، أي ملك فرنسا، وكلمة "إنبرور" وهي تحريف لكلمة (imperor) أي الإمبراطور، وكلمة "النمسون" والمقصود هنا ميناء ليماسول في قبرص وكلمة "سير" (Sir)، وكلمة "الريدراغون" أو "الريدراكون"وهي ترجمة حرفية محرفة لكلمة (Reid Aragon) أي ملك أرغونة أو أرجون، وكلمة "كند سطبل" أو "كندس طبل" أي (Constable) أي الكونستابل. وكلمة "صنجيل" وهو المعروف بـ (Saint Angilles أو St. Gilles). وكلمة "إفرنس" "وهي أمة الفرنج"

ويقصد بها فرنسا (France). والحقيقة أن بعض الكلمات الأخيرة توحي بوجود كلمات ذات تركيب مزيج من كلمة عربية وكلمة دخيلة، وبعضها يوحي بالنقل من اللاتينية مباشرة [١٩٧].

ومن الواضح كذلك أن المسلمين قد عربوا بعض الكلمات ذات الأصل الأجنبي من ذلك مثلا كلمة "ترم" (Term) وفي اللاتينية (Terminus) والتي وردت معربة لأول مرة عند صاحب سيرة صلاح الدين، فبعد أن وقعت مدينة عكا في أيدي الفرنج في الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٧ - ٥٨٨هـ/ ١١٩١-١١٩٢م). فقد اشترط الفرنج لتحرير أسرى المسلمين بها أخذ صليب الصلبوت ومبلغ من المال فدية يتم دفعه على "تروم ثلاثة كل شهر ترم" [١٩٨].

وإذا كان المسلمون قد عربوا بعض الكلمات، وقد ضربنا على ذلك بعض الأمثلة، فإن الصليبيين قد فرنجوا كثيرا من الكلمات مثل كلمة "الزنجبيل" والتي جاءت في الألمانية (Ingwer)، وكلمة "عود الند" (Aloe)، وكلمة "البخور"(Weihrauch)، وكلمة خشب الشب (Alaum)، وكلمة "الخلنجان" (Galagnt)، وكلمة "السبانخ" (Spinat)، و"القرمزى" (Karmesin) [١٩٩].

٢ - الترجمة (ترجمة القصص والكتب)

على الرغم مما يقال بأن حاجزي اللغة والدين قد كان لهما أثرهما الواضح في الحد من عملية الحوار الثقافي بين المسلمين والفرنج، فإنه من الثابت، وكما سوف نرى عند الحديث عن تعليم الفرنج للغة العربية، أن الفرنج قد أجادوا اللغة العربية، بحكم وجودهم في تلك المنطقة، وضرورة تعاملهم بهذه اللغة في الحياة اليومية. كما أنه من المؤكد أن الفرنج قد سمعوا قصص (كليلة ودمنة)، وحملوها معهم إلى الغرب الأوربي وتمت ترجمتها إلى عديد من لغاتهم؛ كما سمعوا حكايات (ألف ليلة وليلة) وترجموها كذلك، ومهما يقال عن أصول هذه القصص الهندية أم الفارسية، فإنهم سمعوها في الشرق بالعربية، وأن ما أجروه عليها من تبديل غريب لا يُخفي مصدرها العربي، فقصة تشوسر: (سكويرز Squieres) لها سابقة في ألف ليلة

وليلة، وكذلك قصة بوكاتشيو: (ديكاميرون Decameron) أو (الليالي العشر) التي اشتملت على عدد من الحكايات، نقلت شفاها من أصول تعود إلى الشرق الأدنى، أما أسطورة (الكأس المقدسة Holy Grail) فقد احتفظت بعناصر لا شك في أنها ذات أصل سوري [٢٠٠].

والجدير بالذكر أن عصر الحروب الصليبية لا يخلو من إشارات صريحة عن ترجمة بعض الكتب العلمية والفلسفية العربية على يد أولئك العارفين باللغة العربية من أبناء الغرب الأوربي الكاثوليكي، منهم أديلارد (Adelard) أول إنجليزي تعمق في دراسة اللغة العربية، ومولده في مدينة باث بانجلترا، وأشرف على تربية هنري الثاني ملك انجلترا وقام برحلات واسعة في إسبانيا، وبلاد الشام، فزار أنطاكية، وطرطوس، وعُرِفَ بترجمانه الفلكية والهندسية من المصادر العربية[٢٠١].

عمل الصليبيون كذلك على الإفادة من علوم المسلمين المختلفة لاسيما في علم الطب، ولا أدل على ذلك من أنهم ترجموا كتاب علي بن العباس المجوسي وهو "كامل الصناعة الطبية" أو "كتاب الطب الملكي"، وعلي بن العباس هو أحد كبار أطباء المسلمين، وهو في الأصل من الأهواز من أرض فارس، وتوفي عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م [٢٠٢]. وكتابه هذا يعد واحدا من أهم الكتب الطبية في العصور الوسطى، ويتكون من ألف ومائتين وسبع وعشرين رسالة في الطب، قام فيها بتلخيص المعارف الطبية كافة حتى عصره، أي حتى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بصورة اتسمت بالتنظيم والترتيب [٢٠٣]، بالإضافة إلى التعمق، مما جعله الكتاب المفضل لدى الأطباء العرب إلى أن ظهر إلى الوجود كتاب (القانون) لابن سينا المتوفى في القرن ٥هـ/١١م، فمال الناس إليه [٢٠٤]. واعتبرت إحدى الباحثات كتابه هذا (كامل الصناعة الطبية) أول كتاب متعمق بصورة دقيقة في الجراحة [٢٠٥]. هذا فلا غرابة أن صار المرجع الأساسي لعلم التشريح (Anatomy) في مدينة سالرنو حيث وجدت هناك مدرسة للطب طبقت شهرتها الآفاق لاعتمادها على الطب العربي [٢٠٦]. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن هذا الكتاب قد تمت ترجمته مرتين،

الأولى على يد قسطنطين الإفريقي (Constatinus Africanus) في دير مونت كاسينو (Mont Casino) في إيطاليا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي غير أنه نَسَبَ الكتاب لنفسه مثلما فعل بالنسبة لكتب أخرى [٢٠٧].

أما الترجمة الأخرى وهي التي تعنينا فقد تمت في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، وعلى وجه التحديد في مدينة أنطاكية عام ٥٢١هـ/١١٢٧م على يد رجل من بيزا يدعى ستيفن الأنطاكي أو اسطفان الأنطاكي (Stephenus Antiochenus) في عهد أمير أنطاكية بوهيموند الثاني (Bohemond II) (٥٢٠-٥٢٤هـ/ ١١٢٦-١١٣٠م)، وهناك من يرى أن ذلك كان في حكم الكتاب الوحيد الذي نقله الصليبيون إلي اللاتينية عندما كانوا في بلاد الشام[٢٠٨]. غير أن هذا الرأي يدحضه الواقع التاريخي، لوجود كتاب آخر تمت ترجمته في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي، وهو كتاب (سر الأسرار في طب العيون) ،وتمت ترجمته في أنطاكية أيضا عام ٦٤٦هـ/١٢٤٧م[٢٠٩].

وعلى أية حال، فإن هذا الكتاب سمي في اللاتينية (Liber Regius)، كما عُرِفَ مؤلفه علي بن العباس المجوسي باسم (Hali أو Haly Abbas) الذي ألف كتابه الشهير هذا للملك عضد الدولة ركن الدين البويهي (٣٣٨-٣٧٣هـ/٩٤٩-٩٨٣م)، وَوُصِفَ الكتاب بأنه جامع كامل لكل ما يحتاج إليه المتطبب، قام فيه مؤلفه بتلخيص كل المعارف الطبية حتى عصره. وفي اللحظة التي قرر فيها اسطفان الأنطاكي (Stephenaies Antochaus) ترجمة الكتاب، اكتشف أن الكتاب قد سبقت ترجمته إلى اللاتينية تحت اسم (Liber Panegni)، تلك الترجمة قام بها قنسطنطين الإفريقي (Constantin)، وهو أحد المسلمين التونسيين، تعلم في بغداد ثم عاد إلى تونس، ولكنه تنصر وهرب إلى إيطاليا حيث مات راهبا عام٤٨٠هـ/١٠٨٧م، وكان أول من نقل إلى اللاتينية مؤلفات العرب الطبية دون أن يذكر أسماء مؤلفيها الحقيقيين، ناسبا تأليفها لنفسه [٢١٠].

أما عن الترجمة التي قام بها اسطفان الأنطاكي (Stephenaies Antochaus) فقد عرفت في اللاتينية باسم (Practica Pentegni et Stephenois)، ويلاحظ أن

المخطوطات اللاتينية تبرز وجود جزأين من الكتاب، القسم النظري ويسمى (Theorica) ومخطوطاته متعددة، وكذلك القسم التطبيقي ويسمى (Practica) ويلاحظ أن مخطوطاته أكثر شيوعا [٢١١]. ومن الطبيعي أن نتصور أن شيوع القسم العلمي من الكتاب في ترجمته اللاتينية يعكس مدى حاجة المعاصرين إليه، على أساس أنه قد اعتمد فيه على مشاهداته العلمية في المستشفيات، لا على دراسة الكتب النظرية، ومن ثم استطاع أن يكتشف أخطاء مرعبة لأطباء اليونان مثل بقراط (Hippocrtes) وجالينوس (Galenues) وبولس الأيجيني (Paul I)، كما أنه يتعرض لوسائل العلاج وأساليبها المختلفة وفقا لطبيعة كل مرض من الأمراض التي ذكرها، كما ينبغي أن نشير إلى أن اسطفان الأنطاكي (Stephenaies Antochaus) قد وضع في ختام ترجمته اللاتينية شرحا لبعض المفردات التي وردت في الكتاب كما هي لدى ديوسكوريدس (Discorids) كبير العشابين اليونان القدامى، وتعليل ذلك أن القراء الذين كانوا يجدون صعوبة في متابعة وفهم بعض المصطلحات اللاتينية آنذاك كان في مقدورهم استشارة الخبراء، إذ أن في صقلية و سالرنو كان هناك طلاب لتلك الموضوعات، وكان هناك اليونانيون الذين هم علي دراية باللغة العربية لغة الحضارة، والوسيط الذي انتقلت عبره أعمال التراث اليوناني الكلاسيكي إلي أبناء الغرب الأوربي[٢١٢].

ومن المهم أن نلاحظ أن أسطفان الأنطاكي قد أدرك منذ ذلك الوقت المبكر أن يضع قاموسا للمصطلحات اللاتينية، واليونانية، والعربية الطبية، وأنه كان أمينا غاية في الأمانة إذ أورد اسم المؤلف الأصلي علي بن العباس المجوسي[٢١٣]. كذلك يجب أن نلاحظ أن هذا الكتاب لم يكن الكتاب الوحيد الذي نقله الصليبيون إلى اللغة اللاتينية في أثناء وجودهم في بلاد الشام، كما يحلو لبعضهم أن يردد ذلك ، فالواقع التاريخي يكشف بين الحين والحين عن أشياء جديدة ، مثال ذلك أن هناك كتابًا آخر تمت ترجمته من العربية إلى اللاتينية في القرن التالي لترجمة كتاب (كامل الصناعة الطبية)، أي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد وقد سبقت الإشارة إليه، وهو (كتاب سر الأسرار في طب العيون) وتمت ترجمته في أنطاكيا أيضا عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م [٢١٤].

كما أن أسطفان الأنطاكي لم يكن الشخص الوحيد من بين الفرنج أو الصليبيين الذي ترجم من اللغة العربية إلى اللاتينية ، حيث تشير بعض المراجع إلى مترجم آخر هو برنارد سلفستر (Bernard Silvester)، الذي عمل على الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وكان معاصرا للملك عموري الأول (Amowry) – ملك بيت المقدس– (١١٦٣–١١٧٤م) على نحو يعكس حجم اهتمام الفرنج بترجمة علوم المسلمين والاستفادة منها آنذاك [٢١٥].

٣ – في مجال الفنون العسكرية

دليل آخر على الحوار الثقافي الذي دار بين الطرفين أن الصليبيين قد اقتبسوا عادة استخدام بعض الآلات الموسيقية في ميادين القتال المختلفة، منها الطبول التي كانت جزءا أساسيا من معدات الجيش الإسلامي، ولها أنغام متعددة ودقات اصطلاحية تستخدم وسيلة اتصال بين الجنود وقادتهم، أو بين الوحدات العسكرية وبعضها، وكانت معروفة وشائعة منذ عهد الفاطميين (٣٦٣–٥٦٧هـ / ٩٧٣–١١٧١م) وحتى العصر المملوكي (٦٤٨–٩٢٣هـ/ ١٢٥٠–١٥١٧م)، ولها مسؤول يسمى "مهتار الطبلخاناة" تحفظ في عهدته جميع الآلات الموسيقية[٢١٦]. ومنها النقارات وهي نوع من الطبول ذات شكل أسطواني مجوف مشدودة بالجلد من الناحيتين ، كانت تستخدم في إصدار الأوامر ، وفي الإيذان ببدء القتال ، وكانت تُحمل على عشرين بغلا ، وعلى كل بغل منها مثنى وثلاث ورباع ، وهي إلى جانب استخدامها إشارات للقيادة والسيطرة في إصدار الأوامر ، فقد كانت تستخدم لتوصيل المعلومات أو إصدار بلاغات بإشارات وأصوات متفق عليها[٢١٧].

في مجال الفنون العسكرية أيضا ، فإن الفرنج قد تعلموا في الشرق طريقة شق خندق مائي حول القلاع والحصون لأهميتها كوسيلة دفاعية ضد أي هجوم مفاجيء للأعداء ، وهي طريقة أصلها إغريقي استخدمها العرب ونقلها عنهم الفرنج ، ومما لاشك فيه أنهم استخدموا مواد محلية في شقها ، وربما بعض الحرفيين المحليين ، ولابد من توقع التأثير السوري في تفاصيل البناء إن لم يكن في المخطط العام للخنادق وشكلها[٢١٨].

كذلك تعرف المسلمون على بعض المعلومات العسكرية الخاصة بالفرنج نتيجة لاحتكاكهم بهم في المعارك الحربية، من ذلك ما يرويه ابن شداد وهو قاضي عسكر صلاح الدين الأيوبي من أن جيوش الفرنج كانت تحرص على اصطحاب راية كبيرة أو علم كبير عادة ما يكون في مقدمة الجيش وصفه أحدهم بقوله: "وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جدا كالمنارة، بخرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل الصلبان " (٢١٩).

ومن المعرف والمسلم به أن الحضارة الأعلى غالبا ما تشد إليها أبناء الحضارات الأدنى، وهذا ما قصده بالضبط أسامة بن منقذ عام ٥٠٥هـ/١١١١م في ذكره لمحاولة الفرنج تعرف فرسان المسلمين عن كثب عندما قال: فجاءنا بعد أشهر كتاب دنكري – تانكرد (Tancerd) – صاحب أنطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول "هذا فارس محتشم من الإفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع إلى بلاده. وسألني أن أسيره إليكم يبصر فرسانكم. وقد نفذته، فاستوصوا به" وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس، إلا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه إلى حكمته. فسألت عنه فقالوا: "هذا الذي حمل على عسكر إسباسلار مودود، وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع إلى أصحابه" (٢٢٠). وهذا يؤكد أن الفرنجي، لدى زوال الحاجز اللغوي بينه وبين أبناء البلاد الأصليين، قد بان له ولا شك أن المسلم، بعد كل حساب، ليس ذلك الملحد الذي كان يتصوره، وأن المسلمين لم يكونوا كفرة جهلة (٢٢١).

من مجالات الفنون العسكرية التي تعلمها الصليبيون في بلاد الشام كيفية أن تتصل الحصون والحاميات من الجبل إلى السهل عن طريق الحمام الزاجل الذي كان مستخدما من قديم الزمان في بلدان المشرق، وعن طريقه كانت الأخبار تنتقل بسرعة من الأردن، عن طريق بيت المقدس إلى يافا وعكا. ولقد ذكر فوشيه الشارتري ذلك صراحة عندما قال: "من عادة المسلمين الذين يعيشون في فلسطين أن ينقلوا من مدينة لأخرى الحمام المدرب لكي يحمل الرسائل و يطير عائدا بها إلى المدينة التي كانت موطنه حتى عهد قريب. والخطابات مكتوبة على أوراق تربط

في أرجل الحمام، تحمل لمن يجدها، و يقرأها أخبارًا، ومعلومات وتعليمات بشأن ما ينبغي عمله. والواضح تماما أن هذا ما حدث في هذه الحال" [٢٢٢]. ودليل آخر علي ما دار من حوار ثقافي في هذا المجال هو تأثيره الواضح ليس علي مستوى الفرنج في بلاد الشام طوال فترة الحروب الصليبية، بل وفي الغرب الأوربي، فمنذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، شرعوا في أوروبا يربون ويستعملون للأغراض الحربية في بادئ الأمر الحمام الزاجل الذي عرفوه في بلدان الشرق[٢٢٣].

ومما عرفه الصليبيون في الشرق ونقلوه إلي الغرب الأوربي عملية إنشاء السقاطات في أسوار القلاع والحصون، وهي عبارة عن أجسام بارزة في السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أسفلها، ويتم استخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقذوفات الحجرية علي المهاجمين إذا أمكنهم تجنب السهام، وتهديد السور عن طريق الاقتراب منه، ولذلك فإنها بنيت فوق الأبواب، وأحيانا في أماكن أخرى من السور على نحو يعوق المهاجم عن تسلق السور، أو إحداث ثلمة أو ثغرة فيه، وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات لفظ مشربيات لبروزها، فالأولى لها وظيفة حربية بينما الأخرى وظيفتها مدنية [٢٢٤].

هناك ظاهرة أخرى في فن العمارة الحربي استعارها أبناء الغرب الأوربي من المسلمين زمن الحروب الصليبية، وهي جعل المدخل الحربى لباب الحصن أو القلعة متعرجًا، أو على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو إذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلي للحصن أو يصوب سهامه إلى من فيه. ولم يعرف الأوربيون هذا النوع من المداخل الملتوية إلا عن طريق العرب في عصر الحروب الصليبية، فطبقوه بعد ذلك في قلاعهم بأوروبا، وظهرت هذه الظاهرة بوضوح في قلعة بوماريس (Beaumaris) في إنجلترا، وفي قلعة كاركاسون في فرنسا[٢٢٥].

في مجال الفكر الحربي تعلم الصليبيون نظرية عسكرية جديدة وهي التي اقتبسها منهم العدو الإسرائيلي في العصر الحاضر، وهي أن الأقلية التي تسعى إلى حكم أغلبية معادية لها ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز في

أعداد صغيرة نسبيا في أماكن حصينة، لذا كان الصليبيون باعتبارهم يمثلون قلة عددية وسط محيط إسلامي هائل ولضمان وجودهم يتمركزون في أماكن حصينة؛ سواء كانت مدنا أم قلاعا، كما أنهم رصعوا شبكة الطرق الرئيسة والثانوية في البلاد بالحصون ونقاط المراقبة التي هي أقرب إلى مراكز الشرطة منها إلى القواعد العسكرية(٢٢٦).

كذلك كان على الفرنج أن يطوروا من فنونهم القتالية في مواجهة الجيوش الإسلامية، ولنأخذ على ذلك دليلا ألا وهو الرسالة التي أرسلها بعض أمراء اللاتين إلى البابا إيربان الثاني (Urban II) يصفون فيها معاركهم مع الأتراك في٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، حيث رووا كيف بدأ الأتراك بالتفرق ثم بدؤوا في تطويقهم، وأنه من الضروري بالنسبة لهم إجراء تعديلات على أساليبهم العسكرية الاعتيادية، ورأوا أنه ينبغي عليهم الصمود أمام الرمي بالسهام والتطويق، وتجاهل الإغراء الذي أبداه فرار الأتراك الزائف والاحتفاظ بتراصهم وتماسكهم إلى أن يتمكنوا من اختيار اللحظة المناسبة لتوجيه هجومهم مع التأكد من اختراق قوة العدو الرئيسة، وأرسلوا رسالتهم هذه عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م يقولون فيها "لكن الحروب الكثيرة ضدهم علمتنا مهارات ومواهب، وهكذا ساعدتنا نعمة الرب ورحمته ... " (٢٢٧).

من الأفكار العسكرية التي تعلمها أبناء الغرب الأوربي في الشرق الحذر من العدو، فلقد لاقى القادة الفرنج صعوبات جمة في البداية لفرض الحذر على فرسانهم في مواجهة العدو، لأن هذه السياسة كانت مكروهة على الدوام من الفرسان الذين كانوا يتعرضون لهجوم العدو ويُمنعون من الرد بهجوم معاكس، وكذلك من أولئك الذين كانوا لا يُجلون في الحرب سوى الشجاعة والقوة والوحشية، ويزدرون أشكال المكر والبراعة كافة. وكما كانت المشكلات التي تواجه جيوش الفرنجة مشكلات معقدة للغاية، فلم يكن على هذه الجيوش أن تتعامل مع خصم يتفوق عليها من ناحية العدد فحسب، وإنما كانت الجيوش الإسلامية تنتهج أسلوبًا قتاليا مجهولا تمامًا بالنسبة لأبناء الغرب الأوربي. وكانت القوة الأساسية في الجيش الصليبي تتشكل من الخيالة الثقيلة التسليح، بينما كان المسلمون بتجهيزاتهم الخفيفة

وخيولهم السريعة القوية يمثلون التحدي الحقيقي أمام الجيوش الصليبية. ويصور لنا صاحب كتاب (الجستا) ذلك التحدي الذي فرضه الأتراك السلاجقة في حديثه عن الهجوم الذي شنوه يوم ٦ مارس ١٠٩٨م على المعسكر الصليبي في أثناء حصار أنطاكية فيقول: "ثم أحدقوا برجالنا ينضحونهم بالنبال والسهام، فجرحوهم وقتلوهم في قسوة، وهجموا على رجالنا هجومًا عنيفًا اضطرهم للفرار إلى الجبل الشاهق وإلى كل ناحية حسبوها تعصمهم منهم، ولم تقيض الحياة إلا لمن تهيأ له الاختفاء بالهرب السريع، أما من عجز عن الفرار فقد لاقى حتفه، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ومشاتنا" (٢٢٨). ولم يكن المسلمون آنذاك خفيفي الحركة فحسب، ولكنهم أحضروا معهم من براري منغوليا القوس القاتل. ولم يكن الأتراك المسلمون يلتحمون في قتال مباشر ولكنهم يطلقون وابلا من السهام من مسافة تقرب من ثمانين مترا حيث لا تستطيع أسلحة الصليبيين الوصول إليهم، ولم تكن السهام لتخطيء جمهرة الفرسان الكبيرة المتجمعين سويا، وكان الصليبيون في وضع ثابت كالبط الراقد، وكانت محاولة الهجوم على جيش إسلامي أشبه ما تكون بمطاردة الريح، وذلك لأن هذا الجيش كان يختفي ببساطة وراء خط الأفق، ولم يكن الموقف أفضل إذا ما تحرك الجيش الصليبي، فبين الآونة والأخرى، كان الخيالة المسلمون يظهرون وكأنما انشقت عنهم الأرض، ويدورون حول الجيش الصليبي المتحرك ويطلقون عليه سهامهم ثم يختفون ليظهروا مرة أخرى بعد وقت قصير وقد امتلأت جعابهم بالسهام من جديد (٢٢٩).

وسرعان ما استجاب الفرنج للتحدي الإسلامي بانتهاج أسلوب الأتراك القتالي بشكل جزئي، ولم يكن هذا بالأمر السهل، فالفرنج الذين لم يتميزوا بالمرونة في أساليبهم عولوا على الموهبة المحلية وكونوا فرقا من السكان المحليين أطلقوا عليهم اسم التركوبلي (Turcople) أي أبناء الأتراك، الذين كانوا يقلدون الأتراك السلاجقة في تسليحهم وأسلوب القتال عندهم، فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة السهام والقوس كانت أهم ما يميزهم، وإلى جانب النجاح الذي يمكن أن يكون قد حققه استخدام فيالق التركوبلي فإن الصليبيين استجابوا للتحدي التركي عن طريق ابتكار طريقة جديدة للقتال تقوم على رد الاعتبار لرامي السهام العادي،

حيث أنشأوا فيالق من رماة السهام لجيوشهم، وقد صار الرماة هم طليعة الجيش في المواجهة بتجهيزاتهم الخفيفة التي كانت تشتمل على غطاء الرأس الخشبي أو الجلدي، وصديري، ودرع خشبي، والقوس، والسهام، وكان المشاة الذين يحيطون بفيالق الفرسان من الأمام والجانبين والخلف مسؤولين عن إبقاء العدو على مسافة معقولة ومنع الرماة الراكبين السلاجقة من استخدام أسلحتهم على نحو فعال، وفي المعارك الكبيرة كانوا يقومون بدور الحائط الواقي الذي يتجمع الفرسان داخله حتى يحين الوقت المناسب للقتال(٢٣٠). ولكن هذه الخطة كانت تشكل نقطة ضعف في التشكيلات الصليبية وخصوصا في المناطق التلية والجبلية أو الأغوار، وهي التي استفادت منها الجيوش الإسلامية كثيرا عندما كانوا يناورون بضرب الأجنحة وفصل النبالة المشاة عن فرسان الصليبيين، وإذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبي يتجرد من حماية الرماة وبذلك يصبح هدفا لسهام الخيالة الأتراك، وقد وعى المسلمون هذا الدرس تماما وكانت هذه المبادرة هي السبب الرئيس في هزيمة الجيوش الصليبية في معركة حطين الفاصلة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م) (٢٣١).

أدرك الفرنج أن المسلمين كانوا يسارعون دائما لاستغلال أي انهيار في النظام أو الروح المعنوية لدى خصومهم، لذا حرص الفرنج على حمل موتاهم وجرحاهم وإخلائهم بسرعة من ميادين المعارك حتى لا ترتفع معنويات أعدائهم المسلمين بمعرفة الخسائر التي أنزلوها بهم، وقبل كل شيء اتخذوا أشد الإجراءات لضمان أن لا يبدي نظام الزحف أية ثغرة يتمكن المسلمون من اقتحامها، وتهديد أي رجل يتخلى عن مكانه في صفوف الجيش بفرض عقوبات صارمة ضده. كانوا أمام ضغط فريق الرماة من الجيش الإسلامي وخاصة رماة السهام يضطرون للخروج لمهاجمة جيش المسلمين وإبعاده لتخفيف الضغط على جيشهم ثم العودة مرة أخرى والمحافظة على نظام التشكيل المتراص(٢٣٢).

٤ - تعلم الفرنج اللغة العربية

نتج عن ضرورات الحياة اليومية بجوانبها الاجتماعية والسياسية قيام العديد من كبار التجار وسادة الفرنج بتعلم اللغة العربية، والإلمام بها إلماما تاما، حتى يسهل

عليهم التعامل مع المسلمين، والتفاوض معهم في ميادين السلم والحرب [٢٣٣]. وفي تصورنا أنه في زمن الحروب الصليبية، بل وطوال العصور الوسطى كانت اللغة العربية (لغة الحضارة) لغة أكثر شيوعا من غيرها في كثير من بلدان العالم القديم، ذلك لأن الأرض كانت تتكلم اللغة العربية. كما نجم عن إقامة كثيرين من أبناء الغرب الأوربي في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وبخاصة من أبناء المدن التجارية مثل البنادقة، أن حرص بعضهم على تعلم اللغة العربية[٢٣٤]. ومما يؤكد هذا أن سلاطين المماليك استعانوا ببعض هؤلاء البنادقة للتفاهم مع إخوانهم القادمين من البندقية وترجمة ما يقولون إلى اللغة العربية، بل إن المؤرخ الشهير جروسيه يرى أن بعض البنادقة قد تعلموا العربية، حتى إنهم عملوا مترجمين في المفاوضات الدبلوماسية التي كانت تتم لعقد المعاهدات التجارية بين البنادقة وسلاطين الأيوبيين والمماليك[٢٣٥].

كان من الأمراء والنبلاء كثيرون ممن اهتموا وعنوا بالآداب والعلوم والثقافة، مثال ذلك الملك بلدوين الثالث (Baldwin III) والملك أملريك الأول (Amlarick I) اللذين شغفا بالآداب، بينما عرف عن همفرى الرابع (Hamffery VI) صاحب تبنين[٢٣٦] درايته التامة باللغة العربية، كما أن رينالد جارنييه (Renald Garnih) صاحب صيدا وشقيف أرنون اشتهر باهتمامه بالعلم الإسلامي[٢٣٧]. وقد قال عنه ابن شداد: "كان من كبار الإفرنجية وعقلائها، وكان يعرف العربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له، ويفهمه ما غمض عليه . . . وكان حسن المحاورة ومتأدبا في كلامه"[٢٣٨].

ومما لا شك فيه أن كثيرًا من ملوك وأمراء الصليبيين قد وقعوا في أسر المسلمين، وأمضوا في أسرهم مددا طويلة، كانت كفيلة بأن يتعلموا شيئا من لغة آسريهم . مثال ذلك الأمير بلدوين كونت الرها الذي صار بعد ذلك الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) ملك بيت المقدس، الذي وقع هو والأمير جوسلين (joclin) أسرى للمسلمين "سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م" بالقرب من مدينة حران[٢٣٩]، وظل بلدوين في الأسر خمس سنوات حتى إطلاق سراحه في منتصف أغسطس

سنة٥٠٢هـ/ ١١٠٨م بفدية دفعها جوسلين [٢٤٠]. وريموند الثالث (III Raymond) أمير طرابلس الذي أمضى ثمان سنوات في الأسر، وقد مات الكثير من الفرسان الفرنج في الأسر وبخاصة من طوائف الرهبان العسكرية لعدم دفعها فدية لمن كان يقع من أفرادها في أسر المسلمين، والفارس جوفير (Gauffier) الذي أسره المسلمون عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م. وتم إطلاق سراحه بعد أربع وثلاثين سنة. بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الجنود الذين كانوا يقعون في الأسر وكانوا يعدون بالآلاف. وكذلك العشرات من الحجاج المسيحيين الكاثوليك[٢٤١].

وترصد المصادر العربية كثيرا من الأحداث التي إن دلت على شيء فإنما تدل على انتشار اللغة العربية بين العديد من فرسان الفرنج. من ذلك ما يرويه لنا أسامة بن منقذ سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م إذ يقول: "في وقت صلاة الصبح رأينا سرية من الإفرنج، نحوا من عشرة فوارس. جاءوا إلى باب المدينة – يقصد ذلك القسم من مدينة شيزر[٢٤٢] الواقع على النهر بقرب الجسر– قبل أن يُفتح فقالوا للبواب. "أي شيء اسم هذا البلد ؟" والباب خشب بينهما عوارض، وهو داخل الباب. قال "شيزر": فرموه بنشاب من خلال الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم"[٢٤٣].

كما أن من طال بهم المقام في الشرق من الفرنج تعلموا الكثير من الكلمات العربية، والدليل على هذا ما حدث عندما فتح السلطان الظاهر بيبرس أنطاكية سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٧م وظلت قلعتها في يد الفرنج الذين بلغ عددهم ثمانية آلاف رجل مقاتلة خارجا عن الحريم والأولاد يوما واحدا إلى أن راسلوا السلطان يطلبون الأمان من القتل وينزلون أسارى، فأنعم لهم بذلك، فخرجوا إلى ظاهرها وعليهم أحسن الملبوس كأنهم زهر الرياض، وضجوا ضجة واحدة، وسجدوا بأجمعهم، وقالوا: "ارحمنا يرحمك الله، فرق الملك الظاهر لهم، وحنَّ عليهم، وعفا عنهم من القتل، وأمر أن يرفع عنهم السيف"[٢٤٤].

كما ينبغي أن نشير إلى أن الكثيرين من سادة الإقطاعات، فضلا عن فرق الرهبان العسكرية، قد أتقنوا اللغة العربية، وذلك للتمكن من التفاهم مع أتباعهم البلديين، وكذلك للإدارة والتجارة، ولعل هذا الاختلاط بين مختلف اللغات قد

أحدث تبادل الكلمات بينهم، إذ إننا حتى اليوم نجد كثيرا من الكلمات العربية في اللغات المختلفة في غرب أوروبا تشهد على ما حدث من حوار ثقافي زمن الحروب الصليبية، منها ما يتعلق بالتجارة، والملاحة، ومنها ما يختص بالفنون والعلوم(٢٤٥). ليس هذا فحسب، بل يشير بعض المؤرخين اللاتين إلى أن بعض رجال فرق الرهبان العسكرية من الإسبتارية والداوية قد أخذوا على عاتقهم دراسة الإسلام، واللغة العربية، وبعضهم تأثر بالتصوف الإسلامي(٢٤٦).

ولم تكن معرفة اللغة العربية قاصرة على الأمراء والنبلاء والجنود والرهبان، بل تعلمها بعض رجال الدين اللاتين كذلك، إذ يذكر جوا نفيل (Join ville) أن أحد القساوسة من عكا ويدعى نيقولا (Nicole) كان يتقن اللغة العربية تماما، وكان ضمن أسرى الفرنج في المنصورة(٢٤٧)، كما أنه كان على دراية كبيرة بكثير من تعاليم الدين الإسلامي، ويذكر أن هذا القس- لأنه كان يتقن العربية - حمله أمراء المماليك رسالة إلى الملك لويس يطلبون منه فيها أن يحلف الإيمان على توقيع معاهدة الصلح بينهما، كما يذكر أن بعض أبناء الطوائف الدينية العسكرية كانوا يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة، حيث حضر أحدهم كتابة نص الاتفاق الذي تم التوصل إليه مع لويس التاسع ملك فرنسا عقب هزيمته (٢٤٨).

وأكثر من هذا، أن اللغة العربية كانت معروفة حتى بين جنود المشاة المرتزقة من الفرنج، وهم الذين كان يستأجرهم أي إقطاعي أو الكنيسة، ويتم استدعاؤهم للحملات الحربية التي يتوقع لها أن تدوم مدة قصيرة، ويؤكد ما ذهبنا إليه أسامة بن منقذ في حديثه عن سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م عندما هاجم والد أسامة مع الأمير برسق ابن برسق كفر طاب(٢٤٩) وكانت بأيدي الفرنج، فوقع في أيديهم بعض الأسرى، ووزعوهم حتى يدفعوا الفدية ويتم فك أسرهم، فقال لهم أحد جنود المشاة هؤلاء: "كم تأخذون مني؟ قالوا: نريد ستمائة دينار، فضرط لهم قائلا: أنا سرجندي (Sergent) ديواني كل شهر - أي راتبي- ديناران، من أين لي ست مائة دينار؟ وعاد وجلس بين أصحابه(٢٥٠).

٥ - تأثر الفرنج بالأمثال العربية

وتجب الإشارة إلى أن الأمر لا يخلو من حوادث أو أمثلة صريحة، تدل دلالة واضحة على أن بعض الأمثال العربية الشائعة آنذاك قد انتقلت إلى بعض أبناء الفرنج، ورددوها كلما حانت لهم الفرصة بذلك، من ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة لتلك الحقبة في الحديث عن عام ٥١٦هـ/١١٢٢م من أنه عندما قام أحد أمراء سلاجقة الروم وهو بلك بن غازي بن بهرام بأسر الأمير جوسلين (Joclin) صاحب تل باشر[٢٥١] والرها وابن خالته قلران (Galeran) بالقرب من سروج[٢٥٢] "وطلب من جوسلين وقلران أن يسلما ما بأيديهما من المعاقل، لم يفعلا، وقالا: "نحن والبلاد كالجمال والحدج - أي الحمل يشد على البعير- ، متى عُقِرَ بعير حُوِّل رحله إلى آخر، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا"[٢٥٣].

٦ - تعلم العرب بعض لغات الفرنج

لعل من الشواهد على إقبال بعض العرب على تعلم بعضًا من لغات الإفرنج ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة عن الحيلة التي لجأ إليها صلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة لإيصال الميرة والعتاد للمحاصرين من أهل عكا وهو ما سبقت الإشارة إليه[٢٥٤]. ومن الرسل الذين استخدمهم صلاح الدين الأيوبي الحاجب يوسف صاحب الأمير المشطوب، وهو عربي الأصل، يجيد لغة الفرنج، والحاجب أبو بكر العادلي، واللذان كانا لهما الدور الكبير في المفاوضات التي انتهت بصلح الرملة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد (Richard) ملك انجلترا سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م [٢٥٥]. كما أن الفرنج أنفسهم استخدموا مترجمين من أصل عربي يجيدون لغة الفرنج، إذ هناك ما يفيد بأن كونراد (Conrnad) كان يستخدم رسولا في مراسلاته مع صلاح الدين يدعى "يوسف"[٢٥٦].

ومما لاشك فيه أن وقوع أعداد كبيرة من الفرنج أسرى لدى المسلمين كان له أثره على الأقل في معرفة المسلمين أو تعرفهم بعض المفردات اللاتينية، ولعله من الأمور التي ساعدت على شيوع استخدام بعض الكلمات الفرنجية الأصل في اللغة

العربية ولو بطريقة محرفة، ما نسمع عنه من لجوء بعض أفراد من الفرنج إلى المسلمين واعتناقهم الإسلام. مثال ذلك ما حدث في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م من أن أحد أمراء الفرنج ويدعى توماس (Thomas) والذي انخرط في وقت من الأوقات في سلك الداوية، ثم هرب إلى نور الدين محمود فاعتنق الإسلام [٢٥٧].

وحتى أسامة بن منقذ أكثر المفكرين المسلمين معاشرة للفرنج، وإن لم يكن يحسن غير العربية، يقول عنهم "إنهم لا يتكلمون إلا الفرنجي، ما ندري ما يقولون، إلا أن ذلك لم يمنع أسامة من استعمال كلمات إفرنجية يفهم معناها جيدا، وخصوصا عندما يقول: "وهؤلاء سرجند" - يقصد (Sergent) - أي من جند المشاة... وتركبولي (Turcopole) والداما (Madame)، والبرنس (Prince) [٢٥٨].

كذلك استطاع بعض الشاميين امتلاك ناصية اللغة اللاتينية، ومنهم الحكيم تادري الأنطاكي اليعقوبي النحلة، فقد أحكم اللغة السريانية واللاتينية بأنطاكية وشدا بها شيئا من علوم الأوائل[٢٥٩].

٧ - المناظرات والمحاورات العلمية

يذكر الهروي في كتابه (الإشارات في الزيارات) أن كثيرا من فرسان الفرنج ممن كانوا يتقنون اللغة العربية كانوا على صلة بمن يفد إلى البلاد المقدسة من علماء المسلمين لزيارة موضع من مواضعها، كذلك كانوا يتحاورون معهم حول أهمية بعض الأماكن المقدسة لدى الطرفين، حيث يشير إلى أنه - أي الهروي- عندما دخل مدينة بيت المقدس سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ثم قصد بيت لحم ومنها إلى الخليل لزيارة قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، اجتمع بأحد فرسان الفرنج يدعى بيرن (Berrn) كان مقيمًا في بيت لحم، معروفا عند الفرنج برجولته وكبر سنه، فذكر له ذلك الفارس أنه دخل تلك المغارة المدفون فيها إبراهيم الخليل، وإسحق، ويعقوب... ورأى هؤلاء الأنبياء، وقد أجرى الهروي معه حوارًا طويلا عن كيفية دفنهم، وترتيبهم، وأكفانهم، وأنه أخبره بأن أحد الفرسان يدعى جفري (Jevvry) كان مكلفًا بتجديد أكفانهم، وتعمير ما انخسف من المغارة، فسأله عنه فأخبره أنه مات منذ أيام [٢٦٠].

يذكر القاضي بهاء الدين بن شداد في حديثه عن سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م عند توجه صلاح الدين الأيوبي إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين قريب من بانياس كان بيد الأمير الصليبي رينالد جارنييه (RenoldGarnie) الذي سارع بالحضور إلى خيمة صلاح الدين، فأذن له بالدخول وكان من كبار أمراء الفرنج وعقلائهم، يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، كما كان معجبا بالشعر العربي، وعندما رأى أن ممتلكاته مهددة من جيوش صلاح الدين، قرر أن يحضر بنفسه إلى صلاح الدين ويجري معه حوارًا، أخبره فيه بأنه قد أعد العدة لاستسلام قلعة تعرف بالشقيف، وطلب من صلاح الدين أن يعتبره من أتباعه، وأن يمنحه منزلا ليقيم فيه في دمشق، وإقطاعا على أن يمنحه صلاح الدين مهلة من الوقت لكي يُخرج أسرته من مدينة صور. ونجح في مسعاه هذا، كما يقول بهاء الدين أن هذا الأمير أتى كثيرا إلى صلاح الدين، وكان ابن شداد ضمن من شارك في مناظرة هذا الأمير باعتباره قاضي عسكر صلاح الدين في ذلك الوقت وملازما له، وأنه - أي الأمير- كان يحسن المحاورة وكان متأدبا في كلامه، وأن تلك المناظرة اتخذت الطابع العلمي للمناظرات "ويناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه، وكان طليق اللسان بالعربية، يعبر عما يجول بخاطره بكثير من التواضع والأدب" [٢٦١].

وتشير بعض المراجع التي بين أيدينا إلى بعض المحاورات العلمية التي جرت بين المسلمين والفرنج، منها على سبيل المثال ما تم في أثناء توقيع المعاهدة بين السلطان الملك الكامل الأيوبي [٢٦٢]، والإمبراطور فردريك الثاني (Frederick II) سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، فقد جرت محاورات علمية في أشياء شتى، منها أن الإمبراطور سير إلى الكامل مسائل حكمية هندسية ورياضية مشكلة، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء، فيعرض السلطان ما أورده الأمير فخر الدين الشيخ المتردد بينهما في المسائل الرياضية، على الشيخ علم الدين الحنفي إمام هذه الصناعة، وأفضل المتأخرين في هذا العلم. بل قيل إن علم الدين سُيّر إلى الإمبراطور كطلبه، فكتب له جواب تلك المشكلات [٢٦٣]. وتم عرض الباقي على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع[٢٦٤].

كما تشير المصادر المعاصرة إلى أنه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب[٢٦٥] (٦٣٧-٦٤٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٩م) تم إرسال الشيخ العلامة سراج الدين الأرموي إلى الإمبراطور فردريك الثاني بناء على طلبه، وظل في بلاطه يحاور كثيرا من علماء الفرنج هناك في مجالات مختلفة من أهمها علم المنطق، وأن الإمبراطور أعجب به إعجابا شديدا فصنف له هذا العالم كتابا في المنطق، فأحسن إليه الإمبراطور إحسانا كثيرا. وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح نجم الدين مكرما[٢٦٦].

وفي أثناء حصار الفرنج لمدينة دمياط في الحملة الصليبية الخامسة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) وصل إلى المعسكر الصليبي في دمياط رجل في الخامسة والعشرين من العمر هو القديس فرنسيس الأسيسي (Francess de Assis) نسبة إلى بلدة أسيسي (Assisi) في إيطاليا، وهو أحد الغربيين القلائل المؤمن بفكرة إقرار السلام بين الغرب والشرق عن طريق الحوار والمفاوضات، فاستأذن بلاجيوس (Belagious) المندوب البابوي في أن يذهب إلى معسكر المسلمين، ويعظ سلطانهم الملك الكامل الأيوبي في الدين، ويتحاور معه في قضية السلام العام بين الشرق والغرب، وفي عام ٦١٦هـ/١٢١٩م وصل إلى المعسكر الإسلامي ومثل أمام السلطان بحاشيته وقليل من قادته وتراجمته، فشرح سبب قدومه إليه، فأذن له السلطان في الكلام، واستمع له، واقتصر في كلامه على وصف المسيحية وفضائلها. ومما يدعو إلى الالتفات أن السلطان الكامل لم يجادل القديس فرنسيس، لتمكن السلطان من عقيدته، ودماثة خلقه، واحترامه لعقيدة غيره، ولم يستدع أحدا من علمائه لمجادلته، بل اكتفى بالمبالغة في إكرامه، واكتفى القديس بالإمعان في إطراء السلطان بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين، وبعد أن طلب إليه إعطاء الرهبان (Francesscan) الفرنسيسكان سدانة كنيسة القيامة في بيت المقدس. ثم استأذن فرنسيس (Francess) السلطان في الاتصال بعسكره والحديث إليهم، فأذن له، وظل القديس المسيحي يتقلب في معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل، فرده السلطان في حراسة أيوبية إلى أطراف معسكر الصليبيين[٢٦٧].

وفي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م في عهد السلطان الظاهر بيبرس تم إرسال قاضي

القضاة الشافعي بحماة المحروسة المؤرخ المعاصر جمال الدين محمد بن سالم بن واصل إلى الإمبراطور ما نفرد هوهنشتاوفن (Manfred Hohenshtouen) صاحب صقلية ومملكة بيت المقدس في عكا، وكانت مهمة ابن واصل أن يعمل على توطيد العلاقات بين سلطان المسلمين والإمبراطور، فلما وصل إليه رحب به، واجتمع به مرارا، وبرجال بلاطه كثيرا، ودار بين الطرفين عدة حوارات علمية نال فيها ابن واصل كل الإعجاب من الإمبراطور وحاشيته، وصنف له كتابا سماه (الإنبرورية في المنطق) (٢٦٨).

٨ – تبادل المعلومات الخاصة بغرائب الطيور والحيوانات

يؤكد أسامة بن منقذ هذه الحقيقة، نظرا لولع قادة الطرفين من الملوك والأمراء بعملية الصيد، ففي حديثه عن الصيد في عكا يقول: "وكنت قد مضيت مع الأمير معين الدين أنر، رحمه الله إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج فلك بن فلك (Folk Son of Folk). فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل إلى بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص(٢٦٩). يصيد الكركي، ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته. فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنوي "إن الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة إصطاد الكركي"، فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك. فطلبه الأمير معين الدين رحمه الله من الملك فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين، فجاء معنا. فرأيته في الطريق يثب إلى الغزلان كما يثب إلى اللحم ووصلنا به إلى دمشق. فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات" (٢٧٠).

٩ – في مجال الطب والصيدلة

جاء الفرنج إلى بلاد الشام وهم يحسبون أنهم سيلقون فيها قومًا كفارًا جهلاء، إلا أنهم سرعان ما دهشوا غاية الدهشة حين وجدوا أهل البلاد يفوقونهم علمًا وحضارة، ولم يكن ذلك لأنه كان في الشرق أمراضا لم يكن لأطبائهم بها علم فحسب، بل كان ذلك من غير شك لما ثبت لديهم من تفوق الأطباء العرب في

جميع فروع الطب(٢٧١). ولا غرابة في أن نسمع أسامة بن منقذ يتحدث عن طبهم فيقول: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة - شمالي لبنان- كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى. قال أحضروا عندي فارسًا طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ فقال: أعيش برجل واحدة. فقال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها. فضربه، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: وهذه إمرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسي وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت من وقتها " (٢٧٢).

كما روى مؤرخو الحروب الصليبية قصصا كثيرة تدل على جهل الفرنجة آنذاك بالطب، وتفوق العرب فيه، من ذلك قصة الملك عموري الأول "أملريك" (Amawry I) حين أصيب بالدوسنتاريا واعتراه من جراء ذلك ضعف شديد، وبلغ به الضعف أن اضطروا إلى حمله على نقالة حين أراد الرحيل إلى القدس. ورفض طبيبه العربي أن يفصده أو أن يعطيه مسهلاً، لما ثبت عند المسلمين من تعاليم الرازي أن ضعف القوة أردأ العلامات، أما طبيبه الفرنجي ففعل به ذلك. فمات من غده وكان ذلك في عام ٥١١هـ/ ١١١٧م (٢٧٣).

كذلك حملتهم الحاجة إلى أن يلجؤوا إلى الأطباء العرب، فاتخذ ملوك وأمراء الفرنج أطباء من العرب، نذكر على سبيل المثال أنه كان لعموري الأول (Amairic I) ملك بيت المقدس طبيب اسمه سليمان بن داود، ولد في القدس وخدم بعد ذلك الخليفة

الفاطمي في مصر، ثم عاد إلى فلسطين بناء على طلب عموري من الخليفة ليصبح طبيبا خاصا لعموري، وخلفه أبناؤه في هذا المنصب، بينما أصبح ابن آخر له معلما للفروسية ومدربا للأمير بلدوين الذي أصبح فيما بعد بلدوين الرابع ملك بيت المقدس[٢٧٤]. ولقد حذا حذوه كثير من أمراء الفرنج، وقد قامت بين هؤلاء الأطباء وبين ملوك وأمراء الفرنج خلال خدمتهم لهم صلات وثيقة، وكانوا موضع تقدير هؤلاء الأمراء والملوك الفرنج [٢٧٥].

وقد يقول لبعضهم أنهم كانوا مشغولين بالحرب. وإن كان الواقع أنه كانت هناك أوقات طويلة من السلم كان الفرنج يستطيعون فيها أن يلموا بالطب العربي. وعندي أن قصورهم عن هذا العمل يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى لا يتم إلا أن يكون بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها. ولم يكن عند الفرنج قدر كاف من الحضارة يسمح لهم باستيعاب كل العلوم العربية، ومع حاجتهم إلى الطب فإنهم لم يريدوا أن يتعلموا منه ما لم يكونوا يعرفون ولو أرادوا ذلك ما استطاعوا [٢٧٦].

وكان للطب فروع عدة، تلحق به: طب العيون، والجراحة، والتجبير، والحجامة، وغيرها. وقد كان للأطباء العرب التفوق الملحوظ، وهم الذين خضعوا لإشراف دقيق من المحتسب[٢٧٧]. أما عن الطب البيطري فتجدر بنا الإشارة إلى أنه قد تعذر علينا معرفة مقدار ما أولاه الفرنج من عنايتهم لهذا الفرع من الطب، والذي كان للعرب اهتمام بالغ به، غير أننا باستطاعتنا أن نجزم أن البياطرة من حذائين ومداوين قد كانوا مسؤولين عن الحيوانات الموكول إليهم أمر تطبيبها [٢٧٨].

وتجدر الإشارة إلى أن الطبيب الفرنجي كان مسؤولا عن حياة مريضه وشفائه، كما أنه كان مسؤولاً أيضا عما قد يترك الدواء من تأثير ونتائج، وهذا ما نصت عليه قوانين مملكة بيت القدس، وكان من حق الطبيب أن يبرهن لدى المحاكم أن المريض لم يتقيد في تناوله الدواء بتعليمات الطبيب، وأنه بسبب ذلك قد هلك. أما إذا ثبت العكس فكان الطبيب تتم معاقبته بعقوبات شديدة، منها دفع ثمن العبد إذا مات، أو شنق الطبيب ومصادرة أملاكه إذا كان المريض المتوفى من الفرنج الأحرار[٢٧٩].

اقتبس الفرنج كثيرا من النظم الموجودة عند المسلمين عامة، والنظم الطبية خاصة، ومنها أن قوانين مملكة بيت المقدس كانت تنظم حالة الأطباء في الممتلكات الصليبية. ومن ذلك أنها لم تكن لتسمح لأي طبيب وفد إلى البلاد بتعاطي المعالجة فيها، قبل أن يؤدي امتحانا يحضره أفضل أطباء البلد، في مجلس يرأسه الأسقف(٢٨٠). أما مراكز دراسة الطب فكانت في أنطاكية، وطرابلس، والقدس، ومن أساتذتها المشهود لهم بطول الباع تيودور الأنطاكي (Theodore of Antioch)، طبيب فردريك الثاني (Fredric II) الخاص، إلى جانب العديد من كبار مشاهير الطب العربي، مثل باسيل الحلبي، ويعقوب النسطوري الطرابلسي. وبوجه عام فإن أطباء الفرنج كانوا دائما في مستوى أقل من زملائهم العرب (٢٨١). والدليل على ذلك تلك المقابلة في الطب عند الفريقين الشرقي والغربي، والتي تمثلها بعض النوادر التي رواها أسامة بن منقذ بشيء من الفن واللباقة. فطب الصليبيين عنده ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربي، كما أن طريقة التداوي المنتظم استمدت بعض جذورها من الشرق الإسلامي، بدليل نشأة دور العلاج والبيمارستانات "المستشفيات"، وبنوع خاص دور علاج مرضى الجذام التي نشأت في أوربا في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي (٢٨٢).

أما فيما يتعلق بالصيدلة فإنها كانت جزءا لا يتجزأ من علم الطب، إذ كان الطبيب نفسه يحضر الدواء. وكانت الوصفات الطبية تحفظ، وقد اعتمد علم الصيدلة آنذاك عند الأوربيين بوجه عام والصليبيين في بلاد الشام بوجه خاص على كثير من العقاقير الشرقية التي تم استيرادها إلى موانيء المستعمرات الصليبية مثل الزنجبيل، ونبات الصبار، ونبات المر، والكافور، وأوراق نبات السنامكي، والقرفة الصيني والأعشاب المرة (٢٨٣). كما ينبغي أن نذكر أنه في حالة موت المريض كانت تقدم الوصفة الطبية إلى رئيس الأطباء، ليرى ما إذا كان فيها تفريط أو إفراط من قبل المريض (٢٨٤).

١٠ - وسائل تمضية أوقات الفراغ وأنواع التسلية

لقد حذا الفرنج حذو الشرقيين في أعيادهم، وحفلات لهوهم، وهنا يبرز الحوار الثقافي في أجل صوره، فقد اتخذ الفرنج جوقات الطرب، ومجالس الشراب وعمدت نساؤهم إلى الجلوس على الدواوين مصغيات إلى ألحان العود، وأنغام الرباب (٢٨٥). ولم يكن الرجال أقل منهن إقبالا وتشوقا إلى سماع الموسيقى بأنغامها وآلاتها الشرقية، فاستمعوا إلى الأرغن، والمزمار، والعود، والقيثارة، والربابة وغيرها كالأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات(٢٨٦).

كذلك فإن ألعاب التسلية وتزكية أوقات الفراغ المعروفة في بلاد الشام في ذلك العصر صارت محببة لدى الفرنج، فلقد أقبلوا على لعب الشطرنج وغيره من ألعاب التسلية، وكذلك مارس الصليبيون صيد الضواري التي كانت من أكثر الرياضات انتشارا بين الفرسان المسلمين في بلاد الشام. وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلا في كتابه عن الصيد وحكاياته والتي كان بعضها مع الصليبيين(٢٨٧). كما كانت الفروسية حلقة أخرى من حلقات الحوار الثقافي والاتصال الثقافي، ومن ينظر في مذكرات أسامة بن منقذ يجد أمثلة كثيرة على هذا الحوار، والذي كان هو نفسه مثالا جيدا - وإن لم يكن مثالا وحيدا - على هذا الاتصال والحوار(٢٨٨).

١١- في مجال الجغرافيا

سرعان ما اكتسب الفرنج الكثير من المعلومات الجغرافية عن بلاد الشرق، وإن كان الدافع لذلك هو استراتيجي، أو الاستفادة من المعلومات الجغرافية للمنطقة بهدف خدمة مصالحهم الحربية (٢٨٩). كانت الحملات الصليبية فعلا قد وسعت آفاق تصورات الأوربيين الجغرافية، ومع ذلك فقد حمل الفرنج بوجه عام، وأبناء المدن التجارية الأوربية بوجه خاص من الشرق إلى الغرب معارف أكثر دقة وتنوعًا عن الجيران، عن بلدان آسيا الأمامية وإفريقيا الشمالية. وخير مثال على ذلك ما رواه أسقف عكا جاك الفيتري (Jacon de vitry) في كتابه (تاريخ الشرق)، وفي رسائله أوصافا مفعمة بالاهتمام الحي بالطبيعة، وبعالم الحيوانات، وعالم النبات في بلدان

شرقي البحر الأبيض المتوسط، وهو يعرض كل المادة المتعلقة بتاريخ مملكة بيت المقدس من وجهة النظر الجغرافية أكثر من وجهة نظر المؤرخ، فقلما تهمه أفعال الفرنج، ولكنه يدخل معطيات إحصائية عن الأحوال الطبيعية والحياة الاقتصادية في مملكة بيت المقدس(٢٩٠).

الخاتمة

هذه صفحات من تاريخ العلاقات بين المسلمين والفرنج في العصور الوسطى بما فيها من ألوان عديدة، من محبة ومودة، ومنفعة متبادلة، ورعاية وتسامح على الرغم من الوجه الآخر لصورة هذه العلاقات بما فيها من عداء، وقد آثرت نقلها إلى القارئ كما هي، حية ناطقة دون تحيز أو تعصب. ذلك أن التاريخ لا ينشر صفحاته المطوية عبر القرون لمجرد الذكرى، وإنما للعبرة والتفكر والاسترشاد بها في الحاضر والمستقبل.

ومن خلال المعاهدات التي توصل إليها المسلمون والفرنجة اتضح لنا حرصهما على تنظيم التعايش السلمي، وذلك في ضوء ما تقدمه مواد تلك المعاهدات من معلومات، وأن لغة الحوار كانت دائما محل رعاية الطرفين. وأن مواد وشروط كل معاهدة من المعاهدات كان يتم توثيقها بشهادة الشهود الذين يوقعون على تلك المعاهدات، وهم غالبا من أعيان الطرفين، ويبدو أن القصد من وراء ذلك هو إشراك هؤلاء الأعيان في تحمل مسئولية تنفيذ المعاهدة كمتضامنين مع ملكهم أو مولاهم في عقدها.

وإذا انتقلنا إلى عملية التفاعل الحضاري بين أبناء الشرق والغرب، تبين لنا من خلال المعاهدات التي عقدت بينهما طوال القرنين السادس والسابع الهجري، الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، أن الحضارة العربية نقلت كثيرا من المؤثرات الحضارية إلى الغرب الأوربي. حيث تقابلت الحضارتان بخصائصهما المادية والمعنوية، وتقاليد حياتهما الدينية والاجتماعية والعسكرية، وشهدت كل حضارة منهما ما عند الأخرى من ألوان الحياة. وبما أن الحضارة الأعلى عادة ما تجذب

إليها أبناء الحضارات الأدنى، لذا فلا غرابة أن ينهل أبناء الغرب الأوربي زمن الحروب الصليبية من الحضارة العربية الإسلامية، كما أن ضرورة الحياة كتبت على سادة الفرنج أن يتعلموا اللغة العربية ليسهل لهم التعامل مع العرب والمسلمين، والتفاوض معهم في ميادين السلم والحرب ويستفيدوا منهم في كل ما من شأنه أن يرقى بهم وبحضارتهم.

وخير من عبر عن هذه الحقيقة المستشرق غرستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب فى ترجمته العربية، عندما قال أن الشرق آنذاك - إيان الحروب الصليبية - كان يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة، في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة (٢٩١) بل هناك شهادة من مؤرخ لاتينى معاصر لتلك الفترة، ورددها من بعده رواد دراسات الحروب الصليبية من أبناء الغرب الأوربي والشرق العربي، فانظر إليه معنا وهو يقول: "تأمل من فضلك، واعتبر كيف نقل الرب في أيامنا الغرب إلى الشرق. لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين، فمن كان منا إيطاليا أو فرنسيا في الأمس، قد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليليا أو فلسطينيا. وكذلك تحول ابن مدينة ريمس (Reims) أو مدينة شارتر (Chartres) إلى صوري أو أنطاكي، فقد نسى كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يذكره، بل لم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتًا وحشمًا، وهو مطمئن حتى كأنه قد ورث ذلك بحق قديم له، في البلاد؛ كما أن البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات، بل بالسوريات أو الأرمنيات، هكذا أصبح كل منا يعيش في وسط أسرة وطنية جميلة، وإنا لنستعمل من آن لآخر اللغات المحلية المختلفة، فأصبح ابن البلد والمهاجرين منا، من متعددي الجنسيات، وقد شدَّ التضامن ما بين أكثر الأجناس منا تباعدا، حتى صدقت فينا آية التوراة القائلة: "سيأكل الأسد والنمر في معلف واحد". ويكاد الواحد منا يكون قد تبلَّد، والمهاجر قد تمثل بالمقيم. وفي كل يوم يغدو علينا الأقرباء والأصدقاء فيفضلون أن يتركوا كل عقاراتهم هناك، لينضموا إلينا، فلم العودة إلى الغرب، طالما أن الشرق يحقق منا الرغبات" (٢٩٢). ولا عجب أن نسمع أميرا صليبيا يقول: إن القتال بين المسلمين والفرنج انتحار أخوى.

ودليل أخير نسوقه على الحوار الحضاري وأثره في سياسة التعايش السلمي من مصدر عربي معاصر. وهو الرحالة المغربي ابن جبير، حين مروره أواخر القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وهو في طريق عودته إلى المغرب على مقاطعة الكرك حيث يقول: " شاهدنا في هذا الوقت خروج صلاح الدين لمنازلة حصن الكرك، وهو سرارة فلسطين وله منظر عظيم الاتساع، متصل العمارة، يُذكر أنه انتهى إلى أربعمائة قرية. ومما يلفت النظر أن القوم من إفرنج ومسلمين، كانت قد سادت بينهم روح التساهل والتسامح مما جعلهم يعيشون، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا". وكلامه أيضا عن بانياس وكانت بيد الفرنج: "ولها محراث واسع، في بطحاء متصلة، وعمارتها بين الإفرنج والمسلمين، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجرى بينهم"(٢٩٣).

بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا إن بعض المدن التي خضعت لحكم الفرنج في بلاد الشام رأت أن من مصلحتها التجارية سك عملة خاصة بها تحمل نقوشا وعبارات عربية وإسلامية، تمجد الرسول محمد "ﷺ" وتحمل التاريخ الهجري، وأنها كانت تقليدا للدنانير الإسلامية إلى أبعد الحدود، ولقيت رواجا هائلا في المتاجرة مع المسلمين في كل مكان(٢٩٤).

واستفاد كثير من التجار العرب من مسلمين ومسيحيين مما يتيحه الحوار الحضاري، فنقلوا إلى المناطق الصليبية سلع الشرق الأقصى عبر مدن حلب، وحمص، وحماة، ودمشق، وبخاصة التوابل الهندية بأنواعها المختلفة، والحرير والخزف الصيني، والأحجار الكريمة، والسجاجيد من فارس وآسيا الصغرى، والنيلة والموسلين من العراق (٢٩٥).

كما أن المنتجات المصرية الزراعية والصناعية، قد تدفقت على أسواق المدن الصليبية، بواسطة التجار المسلمين المصريين والشاميين، فضلا عن المغاربة، نذكر من هذه السلع الشب، والنطرون، والبلسم، فضلا عن سكر القصب، والكتان، والسمك الملح، واللحوم الطازجة والمشغولات المعدنية، إلى جانب الحلي الذهبية

والفضية. وكذلك الصناعات الفخارية ذات الأشكال والنقوش المختلفة، والنيلة من وادي الأردن.

ولم يكن تجار الفرنج أقل استفادة، إذ قاموا بتصدير كثير من السلع إلى البلاد الإسلامية المجاورة، فمنها الخشب الذي يتم جلبه من أوربا إلى عكا - تفاديا لقرارات الحرمان البابوية بالمتاجرة في السلع الإستراتيجية مع المسلمين - ومن عكا يتم نقله إلى المدن الإسلامية، وكذلك الأسلحة مثل الخوذ، والرقيق، والأقمشة الصوفية، والذهب والفراء، والجلود، والقطيفة (المخمل)، والعصفر، والمصطكى [٢٩٦].

حرص الإسلام والمسلمون على احترام شخصية المخالف لهم، ولم يفرضوا عليه أحكامهم أو يجبروه على الخضوع لشرائعهم، ولحل ما قد ينشأ من مشكلات تنجم عن التعامل اليومي فقد تم وضع بعض البنود الخاصة بذلك، حيث كان المبدأ الأساسي في هذه البنود أن تطبق الشريعة الإسلامية إن كان الشخص مسلما، ويطبق القانون الفرنجي إن كان الشخص فرنجيًا، كما كانت لغة الحوار خير وسيلة للتعبير عن حرص الطرفين الإسلامي والفرنجي على أن تتضمن المعاهدات الموقعة بينهما مواد تنص على عدم ممانعة أحد الطرفين من عودة بعض فلاحي بلاد المناصفات الذين اضطروا إلى هجرتها بسبب الخوف من وقوع الحرب وآثارها المدمرة.

كانت لغة الحوار الحضاري بين المسلمين والفرنج عميقة الآثار والنتائج وعلى وجه الخصوص ما كان يخص الفلاحين الموجودين في الأراضي التي خضعت لنظام الحكم المشترك (بلاد المناصفات) بين المسلمين والفرنج، وقد عكست المعاهدات مدى الحرص على فلاحي هذه البلاد، وعلى سلامتهم وعدم تسخيرهم في أي عمل من الأعمال، وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخرة من الجانبين، وقد كان مثل هذه المعاهدات وغيرها تعطي صورة حضارية مشرقة تنفي عن الإسلام والمسلمين تهمة الانغلاق والوحشية والعيش خارج المحيط الكوني.

كما تضمنت المعاهدات التي وقعت بين المسلمين والفرنج بنودًا خاصة بتسهيل

زيارة الأماكن المسيحية المقدسه وتوفير سبل الأمن والأمان لهم وتعين الحرس لمرافقتهم في رحلتهم حتى عودتهم سالمين إلى بلادهم، وقد بلغ تسامح المسلمين الديني أن شمل طائفة الرهبان الفرنسيسكان وكلهم كانوا من الغرب الأوربي بالإقامة في (كنيسة صهيون) ورعايتها والقيام على خدمتها، كما كان الزوار المسيحيين يتمتعون طوال رحلاتهم بحريتهم الدينية كافة، ويمارسون طقوسهم وعباداتهم داخل كنائسهم براحة تامة، وهذا يعني مدى تجلي روح الحوار الحضاري والتسامح الديني من قبل المسلمين تجاه الآخر.

كان حق اللجوء السياسي في عصر الحروب الصليبية من الموضوعات التي تشهد بطول باع المسلمين في هذا المجال، وأن أبناء الغرب الأوربي كانوا قليلي الخبرة في هذا المجال، وكان اللاجئ السياسي يحصل على أمان قبل أن تطأ قدماه البلد الذي سيلجأ إليها ويحرص الطرفان على منحه هذا الأمان على نفسه وماله ومن يحضر معه.

ومن يتتبع الهدن والمعاهدات والاتفاقيات التي تم توقيعها بين سلاطين المماليك وحكام وأمراء الفرنج من أبناء الغرب الأوربي زمن الحروب الصليبية، سوف يقف على مدى تطور الدبلوماسية العربية الإسلامية، وما تضمنته من حوار حضاري بين الجانبين الإسلامي والفرنجي، والأهم من ذلك هو مدى الجهد الذي كان يبذله كثير من المترجمين في هذا الحوار واستمراره، ولم يكن عمل هؤلاء المترجمين قاصرًا على إجراء الحوار والنقاش بين الجانبين فحسب بل شمل أيضا قيامهم بتقريب وجهات نظر الوفود التي تسعى للتفاوض، هذا بالإضافة إلى جانب دورهم في كل محاولة يقوم بها المبعوثون لتعديل نصٍ أو أكثر من نصوص المعاهدات التي سبق توقيعها، وبخاصة في الأوقات التي يجد أحد الطرفين أن الفرصة مواتية له لتحقيق امتياز ما، أو إضافة بند جديد يحقق له بعض المصالح، كذلك كان لهم دورهم الواضح في عملية فسخ المعاهدات حيث كان يتم إيفادهم إلى الطرف الأخر، وإبلاغه شفهيا بذلك الفسخ، والأسباب التي يراها احد الأطراف موجبة للفسخ، كما كان لهؤلاء المترجمين دورهم الفعال في جهاز الاستخبارات ومقاومة الجاسوسية، والمشاركة بنصيب وافر في ذلك إلى جانب قيامهم بدور فاعل في عمليات الجاسوسية المضادة والتي كان يقوم أبناء الغرب الأوربي أثناء زيارتهم للأماكن المسيحية المقدسة

في الشرق وتجنيد بعضهم لخدمة جهاز المخابرات الإسلامية، وقد كان للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري أعوان من الفرنج يراسلونه باستمرار، ويخبرونه بما يحدث من تحركات الصليبيين، أو عند وصول إمدادات إليهم من الغرب الأوربي حتى يكون السلطان المملوكي على علم بأوضاعهم، كما كان لأبناء الغرب الأوربي الذين استقروا في البلاد الإسلامية الحق بممارسة نشاطهم التجاري، وأن يختاروا أحد المترجمين لمعاونتهم في عمليات البيع والشراء، وتعريفهم بقوانين وأنظمة وتقاليد البلاد، ومساعدتهم في إتمام الصفقات التجارية المختلفة.

وكشفت الدراسة العديد من الملامح البارزة في مجال الحوار الحضاري الثقافي الذي دار على الأرض العربية في مصر، وفي بلاد الشام بمفهومها السياسي الحالي، وهي بلاد كل من سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن. والتي عرضناها في عجالة وبما يتفق مع طبيعة البحث، وتأكيدا على أن الحوار الحضاري بين المسلمين والصليبيين قد كانت له الكثير من الجوانب وإن كان الصدام الحربي بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية - وهو ما يعبر عنه بالحروب الصليبية - كان الأعلى صوتا في لقاء الحضارتين. كما أنه من الطبيعي أن يظهر الحوار الثقافي مستوى كل حضارة منهما، وكيف تأثرت كل منهما بالأخرى وأثرت فيها. كما أثبت البحث أن المسلمين وهم في أوج مجدهم وحضارتهم لم يعرفوا التعصب المقيت، أو كراهية أبناء الحضارات الأخرى، وأنهم وإن رفعوا راية الجهاد ضد عدو مغتصب، فإنما كان هذا هو واجبهم لاسترداد حقهم السليب.

وهكذا نكون قد ألقينا الضوء على طبيعة العلاقات التي كانت قائمة في العصور الوسطى بين المسلمين في الشرق والغرب الأوربي سواء كانت علاقات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.

شكر وتقدير

يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ممثلة في عمادة البحث العلمي على دعمهم المادي وتسهيلهم لكافة الصعوبات التي واجهته في إنجاز مشروع بحثه رقم (٤٢٩/٠٦/٢).

الهوامش

(١) أنطاكية: هي قصبة العواصم من الثغور الشامية، من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والطيب وعذوبة الماء.

ياقوت الحموي: شهاب الدين بن عبدالله (ت ٦٢١هـ) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ١، ص: ٢٦٤ - ٢٦٦

البغدادي، صفي الدين بن عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت٧٣٩هـ) *مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، بينهما ست فراسخ.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج٣، ص ١٠٦.

(٣) طرابلس: وهي طرابلس الشام أو كرابلس الشرق، وتقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط بين اللاذقية وعكا، وتربط المدن الساحلية بمدينة سوريا الداخلية، وهي مدينة حصينة عليها سور من صخر منيع البنيان، وتميزت المدينة بحكم ذاتي مستقل، وكانت مركز للعلم لا مثيل له، وفي بداية القرن الثاني عشر الميلادي حوصرت من قبل الفرنج، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ثم فتحت عام ٦١٨هـ/١٢٢١م على يد المنصور قلاوون.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج٢، ص ٨٨٢ ؛ فليب حتي، *تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين*، برنستون، ١٩٣٠م، ص ٢٢.

(٤) **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ١٢؛ **علي السيد علي**، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٥.

(٥) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، حرره فيليب حتي، *تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين*، ص ١٣٢.

(٦) **ابن جبير**، رحلة *ابن جبير*، نشر دار صادر بيروت، ١٩٦٤م، ص ٢٦٠.

(٧) **كلود كاهن**، *الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية*، ترجمة أحمد الشيخ، القاهرة ١٩٩٥م، ص ٦؛ فتحية النبراوي، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطي، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٠.

(٨) **زيتون عادل**، *العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى*، دمشق، ١٩٨٠م، ص ص: ٢٠-٢٥.

(٩) **كلود كاهن**، *الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية*، ص ١١٧.

(١٠) **Grousset R.**, *Histoire des Croisades*, Paris, 1936, Tome 1, p. 387

براور يوشح، *عالم الصليبيين*، القاهرة، ١٩٩٩م، ص: ١٠٧-١٠٨.

(١١) **الجميعي عبد المنعم**، دور الحضارة العربية الإسلامية كنموذج لحوار الحضارات، سلسلة كتب بريزم المتخصصة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص: ١٠-١٢.

(١٢) صلاح الدين: هو الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن مروان بن شادي الكردي الدويني، ولد سنة ٥٣٢هـ، وتولى وزارة الخليفة العاضد بعد وفاة عمه شيركوه سنة ٥٦٤هـ، ونتيجة لجهوده أصبح سلطانًا على مصر، وبعد وفاة نور الدين زنكي توجه نحو دمشق فملكها مع غيرها من بلاد الشام، واسترجع قسمًا كبيرًا من بقاع الشام التي استولى عليها الصليبيون، وحقق أعظم الانتصارات عليهم في فلسطين والساحل الشمالي يوم حطين سنة ٥٨٣هـ، كما تمكن من استرداد طبرية وعكا ويافا، وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، وامتدت حدود دولته في شمال إفريقية حتى تونس غربًا، وبلاد السودان والنوبة جنوبًا، وبلاد الحجاز واليمن شرقًا، فكون بذلك دولة واسعة الأرجاء عرفت في التاريخ بالدولة الأيوبية.

ابن واصل: جمال الدين محمد سالم بن واصل، *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، د.ت.، ج ١، ص ١٦٨، ١٧٤، ٢٠١، كذلك ج٢، ص ٨٨، ١٩٤، وما بعدها.

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) *الكامل في التاريخ*، ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص: ١٧٥ – ١٨٧؛

الملطي، **عبدالباسط بن خليل بن شاهين** (ت٩٢٠هـ) *نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين*، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٠٧هـ /١٩٨٢م، ص ص: ٥١ – ٥٢.

(١٣) **هنتنجتون صامويل**، *صدام الحضارات*، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ص: ٧٠-٢٩٣.

(١٤) أيرلندا الشمالية: أصغر الدول الأربع التي تكون المملكة المتحدة، أما الدول الأخرى: إنجلترا، وإستكلندا، وويلز وعاصمة أيرلندا بلغاست وهي أكبر مدنها وتحتل أيرلندا الركن الشمالي الشرقي من جزيرة أيرلندا وينحدر معظم سكانها من أصل إنجليزي اسكتلندي.
الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ، ج٣، ص ٤٨١.

(١٥) بورما: تقع في جنوب شرق آسيا على امتداد خليج البنغال، وتحدها الجبال من ثلاث جهات: الغرب، والشمال، والشرق وتحيط بنهر وادي "باراوادي" وعاصمتها "رانجون" أو "رانغون" وهي أكبر مدنها وأغلب سكان بورما يعتنقون الديانة البوذية ووصل الإسلام إليها عن طريق التجار، كما أن المسلمين التتار غزوها عن طريق الصين عام ٦٨١هـ.
ياغي إسماعيل أحمد، شاكر محمود، *تاريخ العالم الإسلامي الحديث المعاصر*، ج١، قارة آسيا، الرياض، دار المريخ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ص٣٤١-٣٤٢؛ الموسوعة العربية، ج٥، ص ٢٤٦.

(١٦) كشمير: تقع أقصى شمال القارة الهندية، وتحتل موقعًا استراتيجيًا ممتازًا، لأنها تقع في منطقة تجاور دولتين كبيرتين روسيا والصين، وتقدر مساحتها بحوالي ٢٢٠ ألف كلم مربع، ويبلغ عدد سكانها قرابة سبع ملايين منهم ٨٢٪ مسلمين.
ياغي إسماعيل أحمد، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث المعاصر، ج١، ص ٢٧١.

(١٧) **شقرة جمال معوض**، *"التهديد الإسلامي للغرب المعاصر"*، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ص: ٢٨٣-٣١٢.

(١٨) **الجميعي عبدالمنعم**، *دور الحضارة العربية الإسلامية*، ص: ١٣- ١٤.

(١٩) **النقاش زكي**، *العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية*، دار الكتاب اللبناني، ١٩٤٦م، ص١٤٥.

(٢٠) **الجميعي عبدالمنعم**، *دور الحضارة العربية الإسلامية*، ص: ١٣-١٥.

(٢١) **علي السيد علي**، *العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين*، ص٤٣.

(٢٢) **علي السيد علي**، *العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين*، ص٢٢.

(٢٣) كان فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس من دهاة الرجال، تميز بالشجاعة والحزم والتدبير، أبلى بلاء عظيمًا عند حصار الصليبيين لطرابلس بقيادة ريموند الصنجيلي الذي عمل لإسقاط مدينة طرابلس حتى تكتمل الحدود الأولى لأمارته، بعد استيلائه على طرسوس في الشمال وجبيل في الجنوب، واستمر حصاره لطرابلس قرابة ست سنوات، مات خلالها ريموند متأثرًا بجراحه عام ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م. دعا بلدوين كبار الأمراء الصليبين وحثهم على جمع الكلمة واستمرار تشديد الحصار على طرابلس، ونتيجة لذلك لم يستطع فخر الملك بن عمار الاستمرار في صموده، ومقاومته للصليبيين فاستسلمت المدينة بشرط تأمين حياة سكانها وممتلكاتهم.

ابن الأثير، *الكامل*، ج٨، ص: ٢٥٨ – ٢٥٩.

عاشور سعيد عبدالفتاح، *الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى*، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت.)، ج ١، ص ص: ٣٧١ – ٣٧٢.

(٢٤) الميرة: هي طعام ونحوه مما يجلب للبيع، ولا يوجد فيها زكاة.

ابن منظور محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) *لسان العرب*، المجلد الثامن، القاهرة، دار الحديث ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤١١.

(٢٥) **ابن القلانسي "أبو يعلي حمزة"**، *ذيل تاريخ دمشق*، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٤٧.

(٢٦) بلدوين (Baldwin): ولد ما بين عامي ١٠٦١ و ١٠٧٠م، ونشأ نشأة دينية حيث وهبه والده للكنيسة، ولكن ذلك لم يقع موقع الرضا في نفسه حيث كره ذلك التعليم الديني الذي فرضه عليه إذ حرمه من أن يحصل على شيء من المقاطعات كما نال أخواه، فما كاد أن يشب حتى ترك دراسته وحياته الدينية وانصرف إلى الحياة المدنية، شارك بلدوين في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٧م مع أخيه جودفير، وأظهر شجاعة كبيرة وحكمة وبعد نظر وقد هيأته تلك الصفات ليكون قائدًا وحاكما يشار إليه بالبنان، ويعد بلدوين المؤسس الحقيقي لملكة بيت المقدس، وتمكن من فرض هيمنته على العديد من المدن المجاورة كوادي عرقة، والعقبة الشرقية للأردن، وأيلة على خليج العقبة ولا شك أن سيطرة الصليبيين على هذا الميناء مكنهم من قطع طرق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى

فضلاً عن تهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحرمين الشريفين، وكانت وفاة بلدوين عام ٥١٢هـ/١١١٨م.

عاشور، سعيد عبدالفتاح، تاريخ *العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى*، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص: ١٧٧ - ١٧٨؛ **حبشي، حسن**، *الحرب الصليبية الأولى*، دار الفكر العربي، د.ن.، د.ت.، ص ص: ٦٦ - ٦٧.

(٢٧) طغتكين: هو أبو منصور طغتكين الأتابك حكم دمشق مدة طويلة، وهو أحد مماليك تتش بن ألب أرسلان الذي أسس أول دولة سلجوقية في الشام، فلما ورثه ابنه دقاق في دمشق أعانه طغتكين في الحكم لأنه أتابكه ثم استأثر بالحكم، حتى توفي دقاق سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٤م وتمكن طغتكين من صد الصليبيين عن دمشق واستطاع هزيمتهم، وتوفي عام ٥٢٢هـ فأعقبه في الحكم ابنه بوري.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) سير *أعلام النبلاء*، تحقيق خيري سعيد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ت. ج ١٤، ص ص: ٤٢٨ - ٤٣٠.

(٢٨) إقليم السواد: يقع في نواحي البلقاء، سميت بذلك لسواد حجارتها.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج ٢، ص٢٧٢؛ **عاشور سعيد عبدالفتاح**، *الحركة الصليبية*، ج١، ص ٢٦٥.

(٢٩) جبل عوف: يقع في جنوبي وشرقي جبل عاملة الممتد من شرقي الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور، وكان سكان جبل عوف أشرار في تعاملهم مع الآخرين فبنى عليهم أسامة حصن عجلون، فاستسلموا ودخلوا في الطاعة، كما كان جبل عوف معقل حصين مشرف على الغور وفي شرقيه وجنوبيه جبل الصلت.

أبوالفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد عمر (ت٧٣٢هـ) تقويم *البلدان*، بيروت، دار صادر (د.ت.)، ص ٢٢٨.

(٣٠) **ابن القلانسي "أبو يعلي حمزة"** *ذيل* تاريخ دمشق، ص١٦٤.

(٣١) **ابن القلانسي "أبو يعلي حمزة"** *ذيل تاريخ* دمشق، ص١٧١.

(٣٢) الجولان: هضبة تقع في بلاد الشام بين نهر اليرموك من الجنوب، وجبل الشيخ من الشمال، وهي من عمل حوران، وقد سيطرت على المنطقة حضارات متعددة كالعموريين والأموريين.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص ٣٦٠.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج٢، ص ١٨٨.

(٣٣) **ابن القلانسي "أبو يعلي حمزة"** *ذيل تاريخ دمشق*، ص ١٦٥.

(٣٤) عماد الدين زنكي بن شنفر بن عبدالله ولد سنة ٤٧٧هـ، وكان عند وفاة والده في العاشرة من عمره، ولما شب شارك مع ولاة الموصل في معظم المعارك التي نشبت بينهم وبين الصليبيين في الجزيرة والشام، وأقطعه السلطان محمود السلجوقي شحنكية العراق، وبغداد والموصل والجزيرة والشام، وتمكن عماد الدين في عام ٥٢٢هـ/١١٨٢م من الاستيلاء على حلب، وفي عام ٥٣٩هـ/١١٤٤م استولى على الرها من أيدي الصليبيين وإلى عماد الدين زنكي ترجع البذور الأولى لتكوين الجبهة الإسلامية المتخذة في الشرق الأدنى، مات مقتولاً سنة ٥٤١هـ/١١٤٩م.

ابن القلانسي "أبو يعلي حمزة" *ذيل تاريخ دمشق*، ص٢٨٤؛ ابن *الأثير: الكامل*، ج٩، ص٤١٣؛ عماد *الدين خليل*، عماد *الدين زنكي*، بيروت، الدار العلمية، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٣١، ١١٧، ١٦٧.

(٣٥) حلب: مدينة مشهورة في الشام واسعة كثيرة الخيرات وهي قصبة جند قنسرين وقيل سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان نازلاً بها يحلب غنمه في الجمعان ويتصدق به، فتقول الفقراء حلب وهو قول غير صحيح، وقيل كان حلب وحمص وبرذعه أخوة فبنى كل واحد مدينة سميت باسمه وبجانب حلب قلعة كبيرة محكمة.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ٤١٧.

(٣٦) باب الجنان: يلفظه العامة باب جنين أو باب الرقة، وهو أحد أبواب حلب سمي بذلك لما يليه من الجنان وهي البساتين.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص ١٤٣.

(٣٧) **النويري "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب"** (ت٧٣٢هـ) *نهاية الأرب في فنون الأدب*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص٢٧، ص١٥٨؛ **أبو شامة "شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل"**(ت٦٦٥هـ) *الروضتين في أخبار الدولتين*، القاهرة، ١٢٨٧هـ، جـ١، ص ص:٣٠-٣١.

(٣٨) **ابن شداد، القاضي شهاب الدين** (ت ٦٣٢هـ)، سيرة *صلاح الدين المسماه بالنوادر*

السلطانية والمحاسن اليوسفية، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ت.) ص ٣٠٤.

(٣٩) ريتشارد قلب الأسد (Richard the Lion Heart) حكم ما بين ٥٨٥ - ٥٦٩هـ / ١١٨٩-١١٩٩م أول ملوك أسرة بلانتا جنيت، وشارك ريتشارد في الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥- ٥٨٨هـ / ١١٨٩ - ١١٩٢م مع إمبراطور ألمانيا فريدريك باربارسا (Frederick Bar barossa) ٥٤٧ - ٥٨٦هـ / ١١٥٢ - ١١٩٠م وملك فرنسا فيليب أغسطس (PhilipAugustus) ٥٨٦ - ٦٢٠هـ / ١١٨٠ -١٢٢٣م وقد تمكن ريتشارد من احتلال مدينة عكا وحاول الاستيلاء على مدينة القدس إلا أنه فشل في تحقيق ذلك، وتم بينه وبين صلاح الدين الأيوبي صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م قتل عام ٥٩٦/١١٩٩م.

بردج، أنتوني، *تاريخ الحروب الصليبية*، نقلها إلى العربية أحمد غسان سبانو- نبيل الجبرودي، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥م، ص ٢٢٣.

بالار، ميشيل، *الحملات الصليبية والشرق الأدنى من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر*، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ٢٠٠٣م، الصفحات ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

(٤٠) صلح الرملة: كانت البلاد التي نص عليها بند هذا الصلح مع الصليبيين يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها وعكا وعملها وأخرج منها الناصرية وصفورية ومقاطعة الرملة مناصفة بين الصليبين والمسلمين، وبذلك يكون الصليبيون قد احتفظوا بالبلاد الساحلية من صور إلى حيفا كما تم الاتفاق على تخريب مدينة عسقلان، وأن يكون للصليبين حرية الذهاب إلى بيت المقدس للحج، وللمسلمين أيضاً الحق في دخول البلاد التي امتلكها الصليبيون، كما وافقت إمارتها أنطاكية وطرابلس على شروط الصلح ورضى الداوية والاسبتارية وسائر مقدمي الإفرنج بمعاهدة الصلح.

ابن شداد، *النوادر السلطانية*، ص ٣٠٤؛ **ابن الأثير**، *الكامل* ج ٩، ٢٢١ - ٢٢٢؛ **عمران محمود سعيد**، *تاريخ الحروب الصليبية*، ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م، ص ١٨٤.

الحريري، سيد علي، *الأخبار السنية في الحروب الصليبية*، القاهرة، مكتبة الأعيان، ص ٢١٠.

(٤١) الرملة: مدينة بفلسطين، كانت رباطًا للمسلمين، وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج ٣، ص ٦٩.

(٤٢) لد: قرية قرب بيت المقدس، من نواحي فلسطين.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج ٣، ص ١٢٠٢.

(٤٣) **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص ٢٢.

(٤٤) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٦٩.

(٤٥) قرية جن: من الكور التابعة لحيفا بفلسطين.

شفيق سيد محمد، *فلسطين الحرة*، بيروت، دار الإخلاص، ٢٠٠٤م، ص ١٣٢.

(٤٦) بانياس بلدة قرب دمشق وتقع تحت الجبل الذي في غربي دمشق ويرى عليه الثلج.

البغدادي، *مراصد الاطلاع* ج ١، ص ١٥٨.

(٤٧) **ابن جبير**، *رحلة ابن جبير*، ص ٢٧٣.

(٤٨) جبل لبنان وجبل الثلج وجبل اللكام متصلة ببعضها البعض حتى صارت جبلاً ممتدًا من الجنوب إلى الشمال ويسمى الجبل المقابل ببعلبك (جبل لبنان) وتبلغ مساحته من حيث الطول ستون فرسخًا ومن العرض ثلاثة وثلاثون فرسخًا.

أبوالفداء، تقويم *البلدان*، ص ٦٨.

(٤٩) اللاذقية: مدينة على الساحل، تعد من أعمال حمص، وهي غرب جبلة بينهما ستة فراسخ وهي من أعمال حلب.

ياقوت، معجم *البلدان*، ج ٥، ص ص: ٥-٦.

(٥٠) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص ١٨٠.

(٥١) **ابن جبير**، *رحلة ابن جبير*، ص ٢٧٣.

(٥٢) **ابن جبير**، *رحلة ابن جبير*، ص ص: ٢١٤-٢١٥؛ توفيق عمر كمال، *الدبلوماسية الإسلامية*.

(٥٣) المنصور قلاوون: السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله مملوك تركي كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، اعتقه سنة ٦٤٧هـ، وكان الملك الصالح قد اشتراه بألف دينار فعرف بالألفي، تولى أتابكية الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨هـ ثم خلع بلامش وتولى الحكم ولقب نفسه بالملك المنصور سيف

الدين قلاوون وكان من أهم أعماله الحربية هزيمته للتتار في معركة حمص عام ٦٨٠هـ /١٢٨١م وحروبه مع الصليبيين وتمكنه من فتح طرابلس عام ٦٨٨هـ /١٢٨٩م وما جاورها، وفتح أيضًا حمص والمرقب وغيرها كما كان من أهم انجازاته الداخلية بناؤه للبيمارستان المنصوري في القاهرة، والقبة والمدرسة المنسوبتان إليه، وكانت مدة حكمه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف، وتوفي سنة ٦٨٩هـ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد محمد (٦٨١هـ) *وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان*، تحقيق إحسان عباس، ٦ أجزاء، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢م، المجلد الرابع، ص ١٥٨.

ابن دقماق، صارم الدين، إبراهيم بن محمد (ت٨٠٩) الجوهر الثمين في سير الملوك والأساطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٥م، ج٢، ص ص: ٩٢ – ١٠٤.

الملطي، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، ص: ٧٩–٨٠

(٥٤) **المقريزي "تقي الدين أحمد بن علي"** (ت٨٤٥هـ) *السلوك لمعرفة دول الملوك*، القاهرة، ١٩٤٢–١٩٧١م، جـ١، قسم ٣، ص٩٦٤؛ علي السيد علي، *العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين*، ص ص٥٢–٥٣.

(٥٥) **القلقشندي "أبو العباس أحمد بن علي"**(ت٨٢١هـ) صبح *الأعشى في صناعة الإنشاء*، القاهرة، ١٩١٤م، جـ١٤، ص٥٦؛ علي السيد علي، *العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين*، ص ص٥٢–٥٣، **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص ٢١٥.

(٥٦) عتليت: اسم حصن بسواحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) ويعرف بالحصن الأحمر، كان قد فتحه صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ. **ياقوت الحموي**، معجم *البلدان*، ج٣، ص ٨٥.

(٥٧) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) من أعمال دمشق شرق مدينة صور، بينهما ست فراسخ.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج ٢، ص ٨٥٩.

(٥٨) **القلقشندي**، *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*، جـ١٤، ص٥٦؛ **المقريزي**، *السلوك*، ج١/٣، ص٩٦٤ وما بعدها.

(٥٩) **النقاش زكي**، *العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية*، ص ٢١٣.

(٦٠) **بيبرس البندقداري**، هو الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، تسلطن يوم مقتل السلطان قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، واستمرت سلطنته ثمان عشرة سنة وشهرين، وكان من أبرز سلاطين المماليك البحرية، كما اشتهر بمواقفه الشجاعة في مواجهة المغول، وانتصاره عليهم في معركة الأبلستين سنة ٦٧٤هـ /١٢٧٦م، وأخذ في جهاد الصليبيين وتمكن من فتح العديد من المدن الصليبية، وقد ذكر ابن دقماق بعض فتوحاته فكان منها فتح قلعة البيرة، والكرك، والشوبك، وقيسارية، وصفد، وأنطاكية، وعكا، والمصيصة. ومن أعماله بناؤه الجامع بالحسنية، والمدرسة الصالحية الظاهرية، وقناطر السباع وعمر الحرم الشريف النبوي وأمر بعمارة القلاع التي خربها هولاكو خان والتي كان منها قلعة دمشق، وقلعة الصبيبة، وقلعة بعلبك، وكانت وفاته في يوم الخميس سابع عشر محرم سنة ست وسبعين وست مئة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م.

ابن دقماق، *الجوهر الثمين*، ج٢، ص:٨٠-٨١، **الملطي**، *نزهة الأساطين*، ص ص: ٧٤-٧٥.

(٦١) الاسبتار (Hosptallers): هم إحدى طوائف فرق الرهبان العسكرية / كما عرفوا باسم فرسان القديس يوحنا).

(٦٢) **الإمام الشافعي: أبوعبدالله محمد بن إدريس** (ت٢٠٤هـ) *الأم*، القاهرة، ١٣٢١هـ، جـ٤، ص:١٠٣-١٠٤؛ **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص٣٧؛ **علي السيد علي**، *العلاقات الاقتصادية*، ص: ٥٣-٥٤.

(٦٣) **المقريزي**، السلوك، جـ١، قسم ٣، ص٩٩٢؛ **ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم** (ت٨٠٧هـ) *تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات*، (د.ن)، (د.ت)، ج٧، ص ٢٦٧.

(٦٤) **وليم الصوري** (William of Tyranas)، هو مؤلف كتاب *الحروب الصليبية*، ولد في مدينة بيت المقدس سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م، يعد واحد من أعظم مؤرخي العصور الوسطى كان يتقن عدة لغات منها اللاتينية والفرنسية واليونانية والعربية، وشغل عدة مناصب عالية منها إشرافه على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس وعمل سفيرًا للملك عموري

(Amowry I) في بلاط أمانويل إمبراطور بيزنطة، وسفير لأساقفة صور ومن أشهر مؤلفاته كتاب اسمه أعمال الملك عموري، وكتاب أعمال ملوك بيت المقدس، وتاريخ الحملة على بيت المقدس.

مؤنس عوض محمد، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، عمان، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص ص: ٦٣ - ٦٩؛ الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٩١م، ج١، ص ص:٥ -٦.

(٦٥) **William of Tyre**: *History of Deeds Done Beyond The Sea*, New york, 1943, Vol. I, p. 555.

(٦٦) **La Monte, J.L.** : *The Feudal monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Camblridge, 1932, p. 236.

(٦٧) **المقريزي**، *السلوك*، جـ١، قسم ٣، ص٩٩٣؛ علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية، ص:٥٤-٥٥،

Pernoud, *The Crusades*, London, 1963, pp: 212 - 213

(٦٨) **المقريزي**، *السلوك*، جـ١، قسم ٣، ص٩٩٠.

(٦٩) **المقريزي**، *السلوك*، جـ١، قسم ١؛ **ابن الفرات**، *تاريخ ابن الفرات*، ج٧، ص ص: ٢٦٥-٢٦٦.

(٧٠) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص:٣٧-٣٨.

(٧١) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص ص:٣٦-٣٧.

(٧٢) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص٤٥؛ **بيبرس الدوادار** (ت ٧٢٥هـ)، زبدة *الفكرة في تاريخ الهجرة*، تحقيق زبيدة محمد عطا، الرياض، ١٣٩٤هـ، جـ٩، ص ص:١٩٢-١٩٤٠.

(٧٣) **Amari M.** , *Diplomy Arabi del R. Archivio Florentino*, 1863, I, p. `97

(٧٤) **بيبرس الدوادار**، زبدة *الفكرة في تاريخ الهجرة*، جـ٩، ص ص:١٩٢-١٩٥؛ **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص:٤٦.

(٧٥) **بيبرس الدوادار**، زبدة *الفكرة في تاريخ الهجرة*، جـ٩، ص١٩٤؛ توفيق عمر كمال، **الدبلوماسية الاسلامية**، ص٢٢١.

(٧٦) *المقريزي*، *السلوك*، جـ١، قسم ٣، ص٩٧٦؛ **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الاسلامية*، ص٢٢٢.

(٧٧) **ابن عبدالظاهر، محي الدين أبوالفضل عبدالله السعدي** (٦٩٢هـ) *تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور*، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م، ص ص:٢١٠-٢١١؛ **علي السيد**، *العلاقات الاقتصادية*، ص٤٥.

(٧٨) **بيبرس الدوادار**، *زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة*، جـ٩، ص١٩٤.

(٧٩) علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية، ص٤٦.

(٨٠) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، ص:٤٥-٤٦؛ **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية* الإسلامية، ص٢٢٣.

(٨١) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٤٦.

(٨٢) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٨؛ **النقاش زكي**، *العلاقات الاقتصادية*، ص٢١٥؛ **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الاسلامية*، ص ٢٢١.

(٨٣) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٣.

(٨٤) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل المقابل لحمص، وقيل هو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان بين بعلبك وحمص، وقد شيد هذا الحصن المرداسيون سنة ١٠٣١م، وكان الهدف من تشييده حماية القوافل التجارية القادمة من سواحل الشام إلى الداخل سكنه الأكراد، وكان له دور كبير في الحروب الصليبية وذلك لموقعه الحصين بين الحواضر الشامية كحمص وحماة.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص٤٠٦.

(٨٥) المرقب: بلدة وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس.

ياقوت الحموي، تقويم *البلدان*، ج٥، ص ١٠٨.

(٨٦) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، والصفحة ذاتها؛ **علي السيد**، *العلاقات الاقتصادية*، ص٥٠.

(٨٧) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٦١؛ **المقريزي**، *السلوك*، ج٣/١، ص٩٩٤؛ **ابن الفرات**، *تاريخ ابن الفرات*، ج ٧، ص ٢٦٦.

(٨٨) **ابن الوردي "زين الدين عمر بن المظفر** "(ت٧٤٩هـ)، تتمة *المختصر في أخبار البشر*

المعروف بتاريخ ابن الوردي، طبع النجف ١٩٦٩م، جـ٢، ص١٠٥.

(٨٩) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص٣٢.

(٩٠) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص٤٦.

(٩١) **William of Tyre** , *History of Deeds*, vol. I, p. 317

(٩٢) *Ibid* : Vol. I, pp: 372 - 375.

(٩٣) **ابن حجر العسقلاني**، *أنباء الغمر بأبناء العمر*، القاهرة، ١٩٦٩م، جـ١، ص٣٠٢، **علي السيد علي**، "دور الأسرى الأجانب في المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك "*مجلة التاريخ والمستقبل*، المجلد ٢، ١٩٨٨م، ص١٣٣.

(٩٤) **ابن الصيرفي**، "**علي بن داود إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهري** (٩٠٠هـ)" *إنباء العصر بأنباء العصر*، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ص: ٢٠٣-٢٠٤؛ **علي السيد علي**، *دور الأسرى*، ص ١٣٤.

(٩٥) **ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي** (ت ٩٣٠) *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، القاهرة ١٩٧٢م، جـ٥، ص:٣٧-٣٨.

(٩٦) لبيب صبحى، *مصر وعالم البحر المتوسط*، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٢٩٨.

(٩٧) **P.M. Holts :** *The Treties of the Early Mamluk Sultans With the Frankish States*, SOAS, vol. Xiiii, London, 1980, pp: 67 - 76.

شافع بن علي، ناصر الدين (ت٧٣٠هـ)، *الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور سيف الدنيا والدين*، تحقيق ونشر باو ليناب. **لويسكا**، وارسو، سنة ٢٠٠٠م، ص٣٣٧.

(٩٨) **المقريزي**، السلوك، جـ١، ص١٣٣؛ **العيني، بدر الدين محمود** (ت ٨٥٥هـ) *عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان*، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٨م، جـ٢، ص١١٠؛ **عاشور سعيد**، *المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك*، القاهرة ١٩٦٢م، ص٩٧.

(٩٩) **النويري**، *نهاية الأرب*، جـ٨، ص ٢٨٣.

(١٠٠) **ابن شداد**، "*سيرة صلاح الدين أو النوادر السلطانية*، ص ١٧٢.

(١٠١) **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص٢١٦.

(١٠٢) **المقريزي**، *السلوك*، جـ١، ص٩٩٣.

(١٠٣) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص ص:٦٠-٦١؛ **المقريزي**، *السلوك*، ج١/٣، ص٩٩٣.

(١٠٤) **المقريزي**، السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ص: ٦٤٠-٦٤١، توفيق عمر كمال، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص٢١٦.

(١٠٥) السلطان الناصر محمد بن قلاوون هو السلطان التاسع من ملوك الترك، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ وتولى عرش مصر ثلاث مرات كانت أولاها سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ولم يستمر فيها سوى سنة واحدة، والثانية سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م ولكنها كانت مجرد سلطنة صورية، واعتزل هو الحكم سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م ثم كانت سلطنته الثالثة سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م وقد استمر حكمه في الفترة الثالثة قرابة إحدى وثلاثين سنة وهي فترة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من السلاطين المماليك، وذلك لما تميزت به من ازدهار وإعادة ترتيب للنظام الإداري والمالي في الدولة، وكانت وفاته سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م.

ابن دقماق، *الجوهر الثمين*، ج٢، ص ص: ١٧٠ -١٧١.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤) *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، دار الكتب المصرية، ١٩٣٩-١٩٧٠م، ج٩، ص ص: ١٧٨ -١٨٢.

الملطي، نزهة *الأساطين*، ص: ٨٤ – ٨٧.

(١٠٦) **ابن إياس**، بدائع *الزهور*، جـ١، ص٤٤٥.

(١٠٧) **ابن إياس**، بدائع الزهور، جـ٥، ص٩١.

(١٠٨) **المقريزي**، *السلوك*، جـ٢، قسم ٣، ص٤٧٦.

(١٠٩) كالتالونيا " قطالونية": مقاطعة في شمال شرق أسبانيا قاعدتها برشلونة، واتحدت مع أسبانيا على أيام الملوك الكاثوليك ١٤٧٩م، وهو مركز صناعي وزراعي مهم.

معلوف، لويس، المنجد في *اللغة والإعلام*، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٩م، ص ص: ٥٤٥؛ **موسى محمد هاشم**، *القدس الشامخة عبر التاريخ*، الكويت، مطابع الخط، ص ٢١٠.

(١١٠) رودس: جزيرة ببلاد الروم وهي في الإقليم الرابع وطولها من جهة الغرب خمسون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج٣، ص ٧٨.

(١١١) قبرص: جزيرة في بحر الروم

البغدادي، مراصد الاطلاع، ص٣

(١١٢) المؤيد شيخ المحمودي: هو المؤيد شيخ المحمودي الظاهري الجركسي تسلطن في يوم الاثنين سنة خمس عشرة وثمان مئة، وتوفي ثامن محرم سنة أربع وعشرين وثمان مئة وهو صاحب المدرسة المؤيدية وتعرف بالجامع المؤيدي، وكان من الأحداث الخارجية في عهده قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود وهي قرمان وذو الغادر ورمضان على العودة إلى سابق تبعيتها للدولة المملوكية ففي عام ٨٢١هـ/١٤١٨م خرج السلطان المؤيد إلى طرسوس حيث قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة وسك النقود باسمه، ولكنهم نقضوا عهدهم له بعد ذلك، فأرسل المؤيد ابنه إبراهيم سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م فاستولى على قيصرية وقونية وسك العملة في بلاد التركمان باسم أبيه، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عين حاكماً على تلك الجهات من الموالين له، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن الأخرى مثل أذنة وطرسوس.

الملطي، نزهة *الأساطين*، ص ص: ١٢٦ – ١٢٧؛ **عاشور، سعيد عبدالفتاح**، *مصر والشام في عصر الأيوبين والمماليك*، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٥٣.

(١١٣) **المقريزي**، *السلوك*، ج٤/١، ص ٣٠٠؛ **علي السيد علي**، *العلاقات الاقتصادية*، ص٢١، وما بها من مصادر.

(١١٤) كنيسة القيامة: بنتها الملكة هيلانة أم الملك قنسطنطين عام ٣٣٥م في الموقع الذي اكتشف فيه الصليب الذي صلب عليه عيسى عليه السلام كما يقول النصارى، ويذكر أن الموقع الذي يقوم عليه الكنيسة كان هو الموقع الذي عليه قبر يوكيم، وبناؤها في غاية الإحكام والإتقان، ويقصدونها في كل سنة في عدة أوقات من بلاد الروم والفرنج، ومن بلاد الأرمن ومن الديار المصرية، والمملكة الشامية، ويسمونها القيامة، ويزعمون أن إليها حجهم وكان النصارى يعتقدون أن المسيح قامت قيامته في هذا الموضع، والصحيح أن الموضع اسمه قمامة؛ لأنه كان مزبلة للبلد، كذلك كان موضع تقطع فيه أيدي المفسدين، ويصلب به اللصوص.

ابن الأثير، *الكامل*، ج١، ص ١٨٩؛ **مجير الدين**، *الأنس الجليل*، ج٢/٥١؛ **الهروي، علي بن أبي بكر** (ت٦٦١هـ) *كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات*، مخطوط مصور، رقم ١٠٩ بمكتبة بشير أغا كتاب الإشارات، ص ٢٨؛ ناصر خسرو (ت٤٨١هـ)، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى،

بيروت، دار لبنان للطباعة، ١٩٨٦، ص ص: ٢٧ - ٢٨.

(١١٥) القديس يوحنا الإنجيلي (Saint John) أحد الحوارين الاثنا عشر، كان هو وأخوه الحواري يعقوب من أوائل الحواريين الذين دعاهم المسيح وفقًا لما ورد في الإنجيل "مرقص" فقد سمي يوحنا وأخوه يعقوب أبناء الرعد، وجاء في الإنجيل أن القديس بولص سمى يوحنا "عماد الكنيسة" ويعد يوحنا مؤلف الإنجيل الرابع من العهد الجديد، ومؤلف رسائل يوحنا الإنجيلية الثلاث، إضافة إلى تأليفه لكتاب الوحي.

الموسوعة العربية العالمية، ج ٢٧، ص ص: ٣٤٥ - ٣٤٦.

(١١٦) القديس ميخائيل "ميكائيل" (Saint Michael) كان القديس ميخائيل "ميكائيل" الراعي للفرسان وأحد القديسين الرعاة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ويقام الاحتفال بعيد القديس ميخائيل في ٢٩ سبتمبر في الكنائس الرومانية والأنجيلية، ويحتفل به في ٨ نوفمبر في الكنائس الأمريكية والقبطية، ومن المحتمل أن يكون الاحتفال بعيد القديس ميخائيل (Saint Michae) قد نشأ في الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي.

الموسوعة العربية العالمية، ج ١٦، ص ٧١١.

(١١٧) القديس يوحنا المعمدان (Saint Babtists John): يطلق النصارى على النبي يحيى ابن زكريا عليهما السلام "القديس يوحنا بن المعمدان" (Saint Babtists John) وهو ابن خالة المسيح عليه السلام، وأطلق الرهبان على أنفسهم اسم إخوة القديس يوحنا أو الاسبتاريين، واقتصر عملهم في البداية على العناية بالزوار والمرضى.

الموسوعة العالمية العربية ج ١٧، ص ٢٨٦.

(١١٨) كنيسة صهيون: تقع في أواخر مدينة القدس من جهة القبلة، ويقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها.

مجير *الدين*، **الأنس الجليل**، ج ٢، ص ٥١.

(١١٩) كنيسة مار يعقوب: تعرف بدير الأرمن وهي بالقرب من صهيون، وقد حظيت هذه الكنيسة بمكانة خاصة لدى الطوائف المسيحية المختلفة، وأنه كان بها بئر يقال إن المسيح اغتسل منها وآمن السامرية على يديه عندها وكانوا يزورنها ويعتقدون بها.

مجير الدين، *المصدر السابق*، ج ٢، ص ٥١.

الهروي، كتاب *الإشارات*، ص ٢٧.

(١٢٠) كنيسة المصلبة: وتقع بظاهر القدس من جهة الغرب، وهي مختصة بطائفة الفرنج.
مجير الدين، *الأنس الجليل*، ج ٢، ص ٥١.

(١٢١) جبل طور زيتا: جبل عظيم يقع شرقي القدس يفصل بينهما وادي سلوان وهو وادي جهنم، سماها جغرافيو العرب طور زيتا، وعلى هذا الجبل عقد كتاب الصلح بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وأهل بيت المقدس سنة ١٥هـ، وهو الجبل الذي صعد منه عيسى عليه السلام السماء حين رفعه الله، كذلك به قبر السيدة مريم عليها السلام، وهو في كنيسة في داخل جبل طور زيتا، وفيه بعض قبور الأنبياء والصحابة، وفيه صلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.
ياقوت، معجم *البلدان*، ج ٤، ص ص: ٤٧ - ٤٨.
مجير الدين، *الأنس الجليل*، ج ٢، ص ص: ٦٠ – ٦١.

(١٢٢) بيت لحم: بلد قرب البيت المقدس، وعلى بعد فرسخ من جهة جبرين، وفيه مكان مهد عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد شيدت الامبراطورة هيلانة أم قسطنطين كنيسة كبرى عام ٣٣٠م، تعد من أقدم الكنائس المسيحية يتناوب على حراستها والعناية بها رهبان من الروم والأرمن، وعرفت فيما بعد بكنيسة ميلاد المسيح، وأكمل بناءها عام ٥٦٤هـ / ١١٨٩م مانويل كومنين، وذكر ابن بطوطه أن به أثر جذع النخلة وعليه عمارة كبيرة "الكنيسة" وأن النصارى يعظمونه أشد التعظيم.
ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج ١، ص ٥٢١.
ابن بطوطة، أبوعبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ) *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، تحقيق عبدالهادي التازي، الرباط، الأكاديمية المعربية، ١٩٩٧م، ص ٢٤٤.

(١٢٣) نهر الأردن: نهر مهم في فلسطين والأردن، ينبع من جبل الشيخ في سوريا ويجري لمسافة ١٦٠كلم يعبر خلالها بحيرة الحولة، ثم يصب نهائياً بالبحر الميت الذي ينخفض ٤٠٠م تحت مستوى سطح البحر، وينخفض النهر ٢١م بعد مسافة ١٦ كلم من منطقة بحيرة الحولة إلى بحر الجليل.
الموسوعة، ج ١، ص ٤٦٨.

(١٢٤) **مجير الدين**، *الأنس الجليل*، ج ٢، ص ٥١؛ **عارف باشا العارف**، *تاريخ القدس*،

دار المعارف، الطبعة السادسة، ص: ٢٣٩-٢٤٢؛ **علي السيد علي**، *القدس في العصر المملوكي*، القاهرة، ١٩٨٦، ص ص:٢٥٢-٢٥٨.

(١٢٥) **Pero Tafur**, *Travels and adventure*, London, 1926, p. 59; **Canon Pietro** *Casola's Pilgrims to Jerusalem*, The Uni. Press, 1907, p. 292.

(١٢٦) يافا: مدينة على ساحل البحر المتوسط من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، افتتحها صلاح الدين الأيوبي عند فتحه للساحل في سنة ٥٨٣هـ ثم استولى عليها الفرنج في سنة ٥٨٧هـ ثم استعادها منهم الملك العادل أبوبكر أيوب في سنة ٥٩٣هـ.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج ٥، ص ٢٤٦.

(١٢٧) **Thomas Wright**, *Early Travels in Palestine*, London, 1886, p. 288.

(١٢٨) سينا: اسم موضع بالشام يضاف إليه الطور، فيقال طور سينا، وهو الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى بن عمران - عليه السلام - ونودي فيه، وهو كثير الشجر، وقد جاء في اسم هذا الموقع سنين.

ياقوت، معجم *البلدان*، ج ٣، ص ٣٠٠.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج ٢، ص ٧٦٨.

(١٢٩) *Palestine Pilgrims Text Society*, London, 1897, Vol. VII, pp. 64264- ; Vol. I., p. 46 .

زيتون عادل، *العلاقات الاقتصادية*، ص ٢٠٢.

(١٣٠) **دراج أحمد**، *المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي*، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ص: ٣-١٩.

(١٣١) الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، منها اشتق اسم النصارى، لأنه المسيح سكنها فنسب إليها.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج٣، ص ١٣٤٨.

(١٣٢) **المقريزي**، *السلوك*، ج٣/٣، ص ٩٩٤؛ **توفيق، عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص٢٥٧ و ٢٦٨.

(١٣٣) الريدارغون: يقصد بكلمة الريدارغون باللغة البرتغالية ملك أرجونة، وكان ملك أرجونة الذي وقع معه السلطان المنصور قلاوون اتفاقية عام ٦٨٩هـ/١٢٨٩م هو الملك الفونسو

الثالث أرجون (Alfonso III Argon) (١٢٨٥-١٢٩١م) المسمى في المصادر العربية دو فتش أو دفوشت ومثل الجانب الإسلامي في تلك المعاهدة السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل والملوك أولاده ومثل الجانب الفرنجي الملك الفونسو (Alfonso III Argon) وأخوه صاحب صقلية وأخويهما، وكان عقد المعاهدة على أثر مجيء سفارة خاصة من ملك أرجون إلى قلاوون وأحضرت معها هدية من بينها سبعين أسيراً من المسلمين وشملت تلك المعاهدة مواد تتعلق بأمور التجارة وتنظيمها واتفاقيات سياسية وعسكرية ومسائل ترتبط بالعرف الدولي البحري ، وتعهد الفونسو (Alfonso III Argon) في تلك المعاهدة بمساعدة السلطان قلاوون ضد أي حرب صليبية وضد اللاتين إذا نقضوا ما أبرموه مع السلطان المنصور قلاوون.

سرور، محمد جمال الدين، دولة بني قلاوون في مصر *الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص*، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٢٦٢؛ **توفيق، عمر كمال، الدبلوماسية الإسلامية**، ص ص: ٢٧٠ - ٢٧٣.

(١٣٤) **ابن عبد الظاهر**، تشريف *الأيام والعصور*، ص١٥٦.

(١٣٥) **العمري أحمد بن يحيى بن فضل الله** (ت٧٥٥هـ) *التعريف بالمصطلح الشريف*، مطبعة العاصمة بمصر، ١٣١٢هـ، ص ص:١٦٤-١٦٥.

(١٣٦) **حسين، حسن عبدالوهاب**، مقالات وبحوث في *التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية*، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ص: ٨٣-٨٤.

(١٣٧) **ابن تغرى بردى**، *النجوم*، جـ٨، ص ص: ٦٠-١٥٧.

(١٣٨) **ابن عبدالظاهر**، تشريف *الأيام*، ص١٦؛ **القلقشندي**، صبح *الأعشى*، جـ٤، ص ص: ٥٨-٥٩.

(١٣٩) **القلقشندي**، صبح *الأعشى*، جـ١، ص ص:١١٠-١٢٩.

(١٤٠) **القلقشندي**، صبح *الأعشى*، جـ٨، ص١٣٥؛ **توفيق، عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص١٥٠.

(١٤١) **القلقشندي**، صبح *الأعشى*، جـ٦ ؛ **منى إبراهيم**، *السفارات الأجنبية في مصر*، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، ص ص: ٧٩-٨٢.

(١٤٢) **القلقشندي**، صبح *الأعشى*، جـ١، ص: ١٣٥؛ **توفيق، عمر كمال**، *الدبلوماسية*

الإسلامية، ص١٥٠؛ علي السيد علي "التراجمة في عصر سلاطين المماليك"، مجلة *التربية تصدرها اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم*، العدد ١٠٢، سبتمبر ١٩٩٢م، ص: ١٥٨-١٧٥.

(١٤٣) **القلقشندي**، صبح الأعشى، جـ١، ص: ١٣٣-١٣٥، ص ٤٤٧.

(١٤٤) **توفيق، عمر كمال**، *الدبلوماسية الإسلامية*، ص ص: ٢٤-٣٥؛ **علي السيد علي**: *التراجمة*، ص١٦٦.

(١٤٥) **ابن عبد الظاهر**: تشريف *الأيام والعصور*، ص١٥٦.

(١٤٦) قانصوه الغوري: تولى السلطنة في مستهل شهر شوال سنة ست وتسع مئة، وأثبت جدارته في الحكم رغم تجاوزه الستين من عمره، عمل على إعادة الأمن والاستقرار في الدولة، واتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة، وقام بتشييد مسجد ومدرسة في الحي الذي نسب إليه فيما بعد وهو حي الغورية، كما عني بطريق الحج وحفر بعض الآبار فضلاً عن عنايته بحفر الترع وتحصين الإسكندرية ورشيد، وإصلاح القلعة، هذا إلى أنه عرف عن السلطان الغوري عنايته بمماليكه فأكثر من أعدادهم عن طريق الشراء وصرف الكثير من الأموال على مظهر بلاطه وفخامته وظل الغوري على سلطنته إلى أن قتل في معركة مرج دابق يوم الأحد خامس عشر من رجب من سنة اثنين وعشرين وتسع مئة.

الملطي، نزهة *الأساطين*، ص ص: ١٥٥ - ١٥٧؛ **عاشور**، مصر *والشام في عصر الأيوبيين والمماليك*، ص ٢٧٠.

(١٤٧) خطر البرتغاليين: أعد السلطان قانصوه الغوري حملة بحرية كبيرة أرسلها على البحر الأحمر سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م بقيادة حسين الكردي نائب جدة، واستطاعت هذه الحملة من إنزال هزيمة كبيرة بالبرتغاليين سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٧م، لكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم وتمكنوا من تحطيم الأسطول المصري في العام التالي ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م في معركة ديو البحرية.

عاشور، مصر *والشام في عصر الأيوبيين والمماليك*، ص ٢٧٣؛ **حسن، صفوان طه**، *تاريخ الأيوبيين والمماليك*، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ص: ١٢٠-١٢٢.

(١٤٨) **ابن إياس**، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، جـ٤، ص٢١، ١٢٠؛ **دراج أحمد**، **المماليك والفرنج**، ص١٤٠؛ **على السيد**، *التراجمة*، ص١٦٧.

(١٤٩) **ابن إياس**، *بدائع الزهور*، جـ٤، ص٢١، ١٢٠؛ **دراج أحمد**، *المماليك والفرنج*، ص١٤٠؛ **على السيد**، *التراجمة*، ص ص:١٦٦-١٦٧.

(١٥٠) **اسكندر توفيق**، *تاريخ مصر في محفوظات البندقية*، وثائق غير منشورة، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ص ٨-١٤.

(١٥١) **القلقشندى**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص ص: ١٠٨-١٠٩، **توفيق عمر كمال**: *الدبلوماسية*، ص ص: ١٩٦-٢٠٩.

(١٥٢) **القلقشندى**، *صبح الأعشى*، جـ١٤، ص ص:٧٠-٧١، **علي السيد**، التراجمة، ص ص:١٦٧-١٦٨.

(١٥٣) **توفيق عمر كمال**، *الدبلوماسية*، ص١٦٨؛ **علي السيد**، *التراجمة*، ص ١٦٨.

(١٥٤) **ابن عبدالظاهر**، تشريف *الأيام والعصور*، ص١٦٨.

(١٥٥) **شافع بن على**، *الفضل المأثور*، ص ص: ٣٧٧-٣٧٩.

(١٥٦) إشبيلية: مدينة كبيرة عظيمة ليس بالأندلس أعظم منها تسمى حمص أيضًا وكانت عاصمة ملك الأندلس ومنها كان بنو العباد ٤١٤ - ٤٨٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م ولمقامهم بها خُرِّبت قرطبة، وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخاً وكان لاشبيلية مكانة كبيرة في تاريخ البلاد العربية الإسلامية.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج١، ص ١٩٥؛ **البغدادي**، مر*اصد الاطلاع*، ج ١، ص ٨٠.

(١٥٧) **النويرى "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب"** نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٩، جـ٢٨، ورقة ٤٨.

(١٥٨) قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس.

ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ج ٤، ص ٣٥٤.

(١٥٩) **عنان محمد عبد الله**، "العلائق الدبلوماسية بين القاهرة والممالك الإسبانية" *أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة*، ١٩٦٩، جـ٣، ص ١٢٠٠.

(١٦٠) الإسكندرية: قالوا أن الإسكندر المقدوني بنى ثلاث عشر مدينة سماها كلها باسمه، ثم

تغيرت أسماؤها بعده والمقصود بالإسكندرية هنا هي المدينة العظمى ببلاد مصر.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ص ٧٦.

(١٦١) **ابن عبد الظاهر: محي الدين عبدالله بن رشيد الدين** (ت ٦٦٠هـ) *الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر*، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ، ص٣٨٣، ٤٢٨.

Frescobaldi: Avisit to the Holy places, trans. From the Italidn by Theophilus Bellorini, Jerusalem, 1948, pp: 40 - 44 .

(١٦٢) *Ibid* : p. 44 P; Adler, Elkan Nathan : Jewish travellers, London, 1930, p. 170

(١٦٣) **مكي الطاهر**، *معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر*، *مجلة المجلة*، عدد يناير، ١٩٦١م، ص٩٢؛ **علي السيد**، *التراجمة*، ص١٦٩.

(١٦٤) **لبيب صبحي** *"الفندق ظاهرة سياسية"*، مصر وعالم *البحر المتوسط*، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ص: ٢٩٥-٢٩٦.

(١٦٥) **ابن أيبك الدواداري: أبوبكر بن عبدالله** (ت ٦٣٦هـ) ، *الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر*، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٣٧٤.

(١٦٦) الأشرف قايتباي: هو الناصر محمد بن قايتباي الظاهري الجركسي، مولى السلطان جقمق، اشتراه بخمسين دينارًا، كان فارسًا ممتازًا، وقد ارتقى إلى عرش السلطنة وهو في وظيفة أتابك، وكان ذلك في سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م، وظل السلطان الأشرف في الحكم قرابة تسع وعشرين سنة (٨٧٢ - ٩٠١هـ /١٤٦٨-١٤٩٦م) وهي مدة طويلة لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد كان السلطان قايتباي من أقدر سلاطين المماليك في ميدان الحرب، وأوسعهم خبرة في شؤون العالم الخارجي وأكثرهم شجاعة وحكمة وقد واجه بكل عزيمة كافة المشاكل الداخلية التي واجهته كما تمكن من مواجهة المشكلة الكبرى التي هددت دولته من جانب الدول التركمانية التي هددت حدوده الشمالية في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى، ولم يهمل السلطان شؤون رعاياه ودولته فأقام المنشآت العديدة ويعتبر مسجده بالقاهرة و والوكالات التي أقامها من أجمل المنشآت التي يمتاز بعضها بالتراث العربي الأصيل هذا إلى شغفه بإصلاح آثار وترميم منشآت أسلافه، وكان قايتباي أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الخيرية، توفي في يوم السبت

حادي عشر من ذي القعدة سنة إحدى وتسع مئة.

الملطي، نزهة الأساطين، ص ١٤٣ - ١٤٦؛ **ابن العماد الحنبلي**، شذرات الذهب، ج٨، ص ص ٦-٨؛ **عاشور**، مصر والشام، ص ٢٦٦.

(١٦٧) **اسكندر توفيق**: تاريخ مصر في محفوظات البندقية، ص ص١٢-١٤.

(١٦٨) **Adler**, *Op. Cit.* pp: 160 - 161

(١٦٩) **ابن حجر العسقلانى شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد** (ت٨٥٢هـ) *أنباء الغمر بأبناء العمر*، تحقيق حسن حبشي القاهرة، ١٩٦٩ -١٩٧١م، جـ١، ص٢١٢.

(١٧٠) **زكي النقاش**، *العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية*، ص١٤٣؛ **الشيال جمال الدين**، في كتاب *أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية*، القاهرة، ١٩٧٨م ص٣٥٧.

(١٧١) **Conder**, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972. pp. 167 - 169; Meron **Benvenisti**, *The Gusaders in the Holy Land, Jerusalem*, 1960, pp: 389 - 391

(١٧٢) **زانوروف ميخائيل زانوروف**، *الصليبيون في الشرق*، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م، ص ص:٣٢٢-٣٣٢.

(١٧٣) **قاسم عبده قاسم**، *ماهية الحروب الصليبية*، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٠٦؛ **علي السيد علي**، *العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام*، ص٥.

(١٧٤) **Joshua Prawer**, "Social Classes in the Crusader States: the "Minorates" in Setton (ed): Ahistory of the Crusaders, Philadelphia 1958, Vol. V., pp: 60 - 61 Zoé, Oldenburge: The Crusades, New York, 1960, p. 99 Zoé : *Op. Cit.*, p. 99

(١٧٥) **فيليب حتي**، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الثاني، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م، ص ص:٢٥٠-٢٦٠؛ **عاشور سعيد عبد الفتاح**، *الحركة الصليبية*، حـ٢، ص ص:١٢٠٦-١٢٠٧؛ **زعرور إبراهيم**، على أحمد، *المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوربي خلال العصور الوسطى*، دار المستقبل، دمشق (د.ت.)، ص١١.

(١٧٦) **النقاش زكي**، *العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية*، ص١٣٨؛

Hitti, Philip, *History of the Arabs*, London, 1956, p. 643; *Meron Benvenisti*: **The Crusaders**, p. 371

(١٧٧) **الربيعي عبد الله**، *أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية*، الرياض، ١٩٩٤م، ص٥٦؛ عوض محمد مؤنس، *الحروب الصليبية*، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٦٥.

(١٧٨) **Joshua Prawer**, *Crusader Institulions*, oxford, 1980, p. 203

(١٧٩) **Ibid**.p.478

(١٨٠) **Riley – Smith**, *The Feudal Nobility and The Kingdom of Jerusalem, London,* 1973, p. 45

(١٨١) **Ibid**: p: 101

(١٨٢) **Ibid**: pp. 53 - 54

(١٨٣) **Ibid**: p: 48 - 86 , **Grousset, Rene** : *Histoire des Croisades et du Rayaume Frane de Jerusalem*, Pris, 1939, III, p. 317

(١٨٤) **هونكه زيغريد**، *شمس العرب تسطع على الغرب*، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، ١٩٦٤م، ص ص:٥٥٢-٥٥٧.

(١٨٥) **الطحاوي حاتم**، *الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام*، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٥٤؛ . Conder: Op. it. pp: 167 – 173

(١٨٦) **ماجد عبد المنعم ماجد**، *تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م، ص٢٢٧ **Grousset**: *Op.cit.*, pp: 317 - 319.

(١٨٧) **فيليب حتي**، *تاريخ سورية ولبنان*، جـ٢، ص٢٥٧.

(١٨٨) **ابن العديم الحلبي "كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله"** (ت ٦٦٠هـ) *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، نشر وتحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٨م، جـ٣، ص١١٧؛ **ابن واصل**، جمال الدين محمد بن سالم (٦٩٧هـ)، *مفرج الكروب في تواريخ بني أيوب*، نشر جمال الدين الشيال، ١٩٥٧م، جـ٢، ص٣٣١.

(١٨٩) **Thomas Wright**, *Early Travels in Palastine*, Londong, 1884, pp. 198 -199

(١٩٠) **ابن عبد الظاهر محي الدين**، (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) *الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر*، تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص ص: ٢٩٦-٢٩٧.

(١٩١) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، ص١١٨؛ **ابن شداد**، *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية*، ص ص: ٧٧-٧٨؛ **ابن الجوزي** "ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م" *مرآة الزمان*، جـ٢، ص١٧٤ ؛ **ابن واصل**، مفرج الكروب، جـ٣، ص ص١٤٠-١٥٢؛ **بيبرس الدوادار**: *التحفة الملوكية في الدولة التركية*، نشر عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٦٢.

(١٩٢) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، ص ص:٣٢-٧٣؛ **ابن الأثير**، *الكامل في التاريخ*، في حوادث سنة ٦١٥هـ؛ **المقريزي**، *السلوك*، جـ١، ص١٨٩.

(١٩٣) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، ص١٦٠؛ **ابن عبد الظاهر**، *الروض الزاهر*، ص١٥٣، ٣٠٦، ٣٣٠؛ تشريف *الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور*، ص٣٤؛ **بيبرس الدوادار**، *التحفة الملوكية*، ص٦٤؛ **Rey**, Les Colonies Franques، Paris, 1883, p. 57.

(١٩٤) **القلقشندى**، صبح *الأعشى في صناعة الإنشا*، جـ٥، ص٤٨٤.

(١٩٥) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين، وهي على شاطئ نهر تاجه.

البغدادي، مراصد الاطلاع، ج ٢، ص ٨٦٢.

(١٩٦) **ابن الطوير القيسراني**، نزهة *المقلتين في أخبار الدولتين*، تحقيق أيمن فؤاد، شتوتجارت، ١٩٩٢م، ص٤٤؛ **ابن عبد الظاهر**، تشريف *الأيام*، ص ص:٣٤-١٥٦؛ **بيبرس الدوادار**، *التحفة الملوكية*، ص:٦٢-٧١؛ **المقريزى**، *السلوك*، جـ١، ق٢، ص٣٣٣، جـ٣، ص٧٠٦؛ **ابن تغرى بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف** (ت ٨٧٤هـ) *النجوم الزاهرة في ملوك مصر*، جـ٦، ص ص١٤٨-١٤٩؛

Runciman: *A Hstory of the Crusades*, London, 1951, Vol. III, p. 325

(١٩٧) **ابن شداد**، *النوادر السلطانية*، ص ص:١٥٠-١٥١.

(١٩٨) **هونكة زيغرد**، *شمس العرب تسطع على الغرب*، ص ص:١٩-٣٥.

(١٩٩) **فيليب حتي**، تاريخ سورية ولبنان، جـ٢، ص٢٥١؛ **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص١٨٧.

(٢٠٠) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص١٨٦؛ **فيليب حتي**،

تاريخ سوريا ولبنان، جـ٢، ص:٢٥٠-٢٥١.

(٢٠١) **ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمدى** (٦٦٨هـ) *عيون الأنباء في طبقات الأطباء*، تحقيق نزار رضا، بيروت، (دت)، ص٣١٩؛ **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٣.

(٢٠٢) **ريسلر جاك**، *الحضارة العربية*، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٠٣.

(٢٠٣) **عمر نجيب**، *الطب الإسلامي عبر القرون*، الرياض ١٩٨٧م، ص١٧٥؛ **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٤.

(٢٠٤) **الخطيب حنيفة**، *الطب عند العرب*، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٩.

(٢٠٥) **منتصر عبدالحليم**، *تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تطوره*، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٢٠.

(٢٠٦) **الربيعي عبدالله**، *أثر الشرق الإسلامي*، ص ص: ١٢٦-١٢٧.

(٢٠٧) **فيليب حتي**، تاريخ سورية *ولبنان*، جـ٢، ص١٨٦؛ **فروخ عمر**، *تاريخ العلوم عند العرب*، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٨١، حاشية ٦.

(٢٠٨) **المهدي عبد الجليل حسن**، *الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى*، عمان، ١٩٨٠م، ص٤١، حاشية.

(٢٠٩) **Le Clerc, L**: *La Medicine Arabe*, Paris, 1876, Tome 11, p. 38

زيغريد هونكه، شمس *العرب تصدع على الغرب*، ص٣٤٨؛ **الربيعي عبد الله**، *أثر الشرق الإسلامي*، ص ص: ١٢٦ -١٢٧؛ **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٦؛ **Haskins**: *Studies in the History of Medical Science*, Cambridge, 1927, p. 131

(٢١٠) **Haskins** : *Studies in the History of Medieval Science*, Cambridge, 1927, p. 31

(٢١١) **إبراهيم زعرور**، *المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوربي خلال العصور الوسطى* 21-27 ; Ibid, pp: 132 -134.

(٢١٢) **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٦؛ **السامرائي كمال**، مختصر *تاريخ الطب العربي*، بغداد، ١٩٨٥م، جـ١، ٢٣٢.

(٢١٣) **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٦؛ **المهدي عبدالجليل حسن**، *الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى*، ص٤١.

(٢١٤) **عوض محمد مؤنس**: *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٧.

(٢١٥) **ابن شاهين الظاهري**، عبدالباسط غرس الدين خليل (ت٨٧٣هـ)، *زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك*، باريس، ١٨٩١م، ص٦٣؛ **فهيم محمود نديم أحمد**؛ *الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص ص:١٥٥-١٦٢.

(٢١٦) **القلقشندي**، *صبح الأعشى*، جـ٣، ص٤٧٥؛ جـ٤، ص١٣؛ **فهيم محمود**، *الفن الحربي للجيش المصري*، ص ص: ١٥٥ -١٦٢؛ **زابوروف ميخائيل**، *الصليبيون في الشرق*، ص ص: ٣٣٤-٣٣٥.

(٢١٧) **ابن واصل**، *مفرج الكروب*، جـ٤، ص١٨؛ **سميل رسي**، *فن الحروب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر*، ص ص:٣٤٣-٣٤٥.

(٢١٨) **ابن شداد**، *النوادر السلطانية*، ص١٤٩.

(٢١٩) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص٦٩.

(٢٢٠) **فيليب حتي**، *تاريخ سورية*، جـ٢، ص٢٥٧.

(٢٢١) **الشارتري فوشيه**، *الوجود الصليبي في الشرق العربي*، ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م، ص٣٤٩. يقصد فوشيه الشارتري بعبارة "في هذه الحال" أن أهل عسقلان عرفوا بمسير بلدوين الثاني في يونيو ١١٢٥م تجاه مدينتهم بواسطة الحمام الزاجل، وهو ما منحهم وقتا كافيا لإنقاذ مواشيهم وإدخالها إلى المدينة، حاشية ١ من نفس الصفحة.

(٢٢٢) **زابوروف ميخائيل**، *الصليبيون في الشرق*، ص٣٣٣.

(٢٢٣) **شافعي فريد**، *العمارة العربية في مصر الإسلامية*، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٩١؛ **عوض محمد مؤنس**، *العلاقات بين الشرق والغرب*، ص٣٧٨؛

Creswell, *Short Account of Early Islamic architecture*, London, 1958,pp. 121 -122

(٢٢٤) **عاشور سعيد**، *الحركة الصليبية*، جـ٢، ص١٢٠٧.

(٢٢٥) **براور يوشع**، *عالم الصليبيين*، ص: ١٩٥-٢٠٢.

(٢٢٦) **سميل رسي**، *الحروب الصليبية*، ص١٨٤.

(٢٢٧) **المؤرخ المجهول**، *أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس*، ترجمة د. حسن حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م، ص ص:٦٠-٦١.

(٢٢٨) **براور يوشع**، *عالم الصليبيين*، ص ص:٢٠٦-٢١٥.

(٢٢٩) **براور يوشع**، *عالم الصليبيين*، ص:٢١٦.

(٢٣٠) **براور يوشع**، *عالم الصليبيين*، ص ص:٢١٧-٢١٨.

(٢٣١) **سميل رسي**، *الحروب الصليبية*، ص ص:١٥٨-١٦٠.

(٢٣٢) **سعداوي نظير حسان**: *الحرب والسلام*، ص١٨٤.

(٢٣٣) **Grousset, Rene,** *Histoire de Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem*, Paris, 1936, Tome III, p. 317

(٢٣٤) *Ibid*: Tome III, p. 317

(٢٣٥) **رنسيمان**، *تاريخ الحروب الصليبية*، جـ٣، ص١٥، ٨١٧؛ جـ٢، ص ص:٥٨٤- ٥٩٤.

(٢٣٦) تبنين: بلدة بين دمشق وصور.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص ٢٥٣.

(٢٣٧) **ابن شداد**، *النوادر السلطانية*، ص ص:٩٧-٩٨؛ **ابن واصل**، مفرج *الكروب*، جـ٢، ص٢٨٢.

(٢٣٨) **الشارتري فوشيه**، *الوجود الصليبي*، ص٢١٢.

(٢٣٩) حران: مدينة بغوطة دمشق من بلاد الشام.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص ٣٨٩.

(٢٤٠) Zoé : Op. Cit. p. 577.

(٢٤١) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص٥٦.

(٢٤٢) شَيزر: بتقديم الزاي على الراء، وفتح أوله، قلعة تشتمل عليها كورة بالشام، قرب المعرة، وفي وسطها نهر الأرند عليه قنطرة في وسط المدينة.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج٢، ص ٨٢٦.

(٢٤٣) **ابن أيبك الدواداري أبوبكر بن عبدالله** (ت٧٣٤هـ) *الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية*، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٢٧.

(٢٤٤) Grousset: *Op. Cit,* Tome III, p. 833. **Rey, E.** *Le Colonies Franques,* 166 ;-168

(٢٤٥) **Moris Bishop,** *The Pelican Book of the Middle Ages,* Benguin Books, 1978, p. 119

(٢٤٦) **Jionville and Villehardauin,** *Chronicle of the Crusades,* London, 1977, pp: 252 -263

(٢٤٧) المنصورة: بلدة أنشأها الملك الكامل ابن الملك العادل أيوب بين دمياط والقاهرة، ورابط فيها في وجه الفرنج حتى تمكن من استعادة دمياط من الفرنج الصليبيين.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج ٣، ص ١٣٢٢.

(٢٤٨) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، ص ص:٩٧-٩٨؛ **سميل**، كتاب *الحروب الصليبية*، ترجمة سامي هاشم، بيروت، ١٩٨٢م، ص ص:٩٧-٩٨.

(٢٤٩) كفر طاب: بلدة بين المعرى وحلب.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج ٣، ١١٧٠.

(٢٥٠) **الحلبي ابن العديم**، *زبدة الحلب*، ص٢٠٦.

(٢٥١) تل باشتر: قلعة حصينة، وكورة واسعة في شمال حلب.

البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ج١، ص ٢٦٩.

(٢٥٢) سروج: بلدة قريبة من حران.

البغدادي، مراصد الاطلاع، ج ٢، ص ٧١٠.

(٢٥٣) **الحلبي ابن العديم**، ص١١٧؛ **Conder,** *Op, Cit.,* p. 260

(٢٥٤) **ابن شداد**، *النوادر السلطانية*، ص٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٥؛ **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص٤٩؛ **Grousset:** *Op, Cit.*، Tome III, p. 116; Stevenson: The Crusades in the East, Cambridge, 1907, p. 279, Bercovici: The Crusades, New york, 1929, p. 278

(٢٥٥) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص٤٧.

(٢٥٦) **الحلبي ابن العديم**، *زبدة الحلب*، جـ٣، ص٣٤؛ **رنسيمان**، *تاريخ الحروب الصليبية*، جـ٢، ص ص:٦٢٩-٧٤٢.

(٢٥٧) **أسامة بن منقذ**، كتاب *الاعتبار*، ص٦٦، ١٠٠، ١٠١، ١٣٦، ١٤٠.

(٢٥٨) **ابن العبري، غريغوريوس أبوالفرج بن أهرون الطبيب الملطي** (ت ٦٨٥هـ) تاريخ *مختصر الدول*، بيروت، ١٩٥٨م ص٤٧٧؛ **زكي النقاش**، *العلاقات*، ص198، 173-172 **Rey** : *Op. Cit. pp:* 172.

(٢٥٩) **الهروي**، *الإشارات*، ورقة ٢٦أ، ٢٦ب.

(٢٦٠) **ابن شداد**، *النوادر السلطانية*، ص٩٧-٩٨؛ **Zoe**: *Op. Cit*, p. 523

(٢٦١) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص ص: ٩٨-٩٩.

(٢٦٢) السلطان الكامل: محمد بن أبي بكر بن أيوب الملك الكامل ولد سنة ٥٧٦هـ، وتملك الديار المصرية في عهد والده لمدة عشرين سنة وحكم مثلها، وفي عهده تمت معاهدة يافا المشؤمة، والتي عقدها مع الامبراطور فردريك، وبموجبها تم الاتفاق بين الطرفين على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم، وتبنين، وصيدا، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة ويتولاه قوام المسلمين، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين والصليبيين من كلا الجانبين، توفي في شهر رجب سنة ٦٣٥هـ.

الملطي، نزهة *الأساطين*، ص ص: ٥٨ - ٥٩؛ **حسن صفوان طه**، *تاريخ الأيوبيين والمماليك*، ص ١١٥؛ **عاشور**، مصر *والشام في عصر الأيوبيين والمماليك*، ص ١٠٠؛ **عمران**، *تاريخ الحروب الصليبية*، ص ٢٩٤.

(٢٦٣) **ابن واصل**، مفرج *الكروب*، جـ٤، ص ص: ٢٣٤-٢٤٢.

(٢٦٤) **ابن واصل**، مفرج *الكروب*، جـ٤، ص٢٤٧.

(٢٦٥) نجم الدين أيوب: ولد الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر في القاهرة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م من أم سوداء تدعى (ورد المنى)، ونشأ في بلاط أبيه نشأة تليق بأمراء عصره، وتعلم على يد كبار المشايخ والعلماء، تولى الحكم سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م، وهو الذي جلب المماليك إلى مصر فاشترى منهم ألف مملوك وأسكنهم جزيرة الروضة خوفاً من احتكاكهم مع العامة مما يثير البغضاء بينهم، وابتنى لهم فيها قلعة، واتخذها مقراً لحكمه وزودها بالسلاح والمؤن وعرف هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية الصالحية نسبة إلى جزيرة الروضة. توفي الملك الصالح أيوب في شعبان سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

الملطي، نزهة *الأساطين*، ص: ٦١ - ٦٢؛ **ابن العماد الحنبلي**، شذرات *الذهب*، ج٥، ص: ٣٣٧-٣٣٨.

(٢٦٦) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص ص: ٦٩-٧١.

(٢٦٧) **سعداوي نظير حسان**، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص ص: ١٣٦-١٣٧.

(٢٦٨) القرنصة سقوط الريش، فإذا شرعت الجوارح في القرنصة فينبغي أن يُعد لها بيت لا يدخله الغبار والدخان والرياح، ويفرش حوله ورق الصفصاف، انظر الحاشية رقم (١٣) عند **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص١٩٥.

(٢٦٩) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص ص: ١٩٥-١٩٦.

(٢٧٠) **حسين محمد كامل**، *"في الطب والأقربازين من كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة* الأوربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٢٥٩.

(٢٧١) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص ص١٣٢- ١٣٣.

(٢٧٢) **حسين محمد كامل**، *أثر العرب*، ص٢٦٠؛ **رنسيمان**، *تاريخ الحروب الصليبية*، جـ٢، ص: ٥٨٣-٥٨٤.

(٢٧٣) **Cahen, C.,** *La Syrie du Nord a L.Epoque des Croisades,* Paris, 1940, pp: 451 - 60

(٢٧٤) **كاهن كلود**، *الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية*، ص٢٩٧.

(٢٧٥) **ر. سي سميل**، *فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر*، دمشق، ١٩٨٥م، ص ص١٠١- ١٠٢.

(٢٧٦) **حسين محمد كامل**، *أثر العرب*، ص ص: ٢٥٩-٢٦١.

(٢٧٧) **Rey** : *Op. Cit.* p. 182

(٢٧٨) **النقاش زكي**، *العلاقات*، ص٢٠٦ ; *Ibid* : p. 183

(٢٧٩) النقاش زكي، العلاقات، ص ص:٢٠٥ - ٢٠٦ *Ibid* : p. 182

(٢٨٠) **Rey** : *Op. Cit. pp:* 181 - 182

(٢٨١) **رنسيمان**، *تاريخ الحروب الصليبية*، جـ٢، ص٥٨٣؛ *Ibid*: pp: 178 -179.

(٢٨٢) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص ص:١٣٢-١٨٣؛ سعداوي نظير حسان، *الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي*، ص١٩٩.

(٢٨٣) **Mayer , H.E.,** *The Crusades,* Trans. By. Gillingham, Oxford, 1972, p. 176

Rey: *Op. Cit,* p. 189

(٢٨٤) **النقاش زكي**، *العلاقات*، ص٢٠٧. **Rey** : *Op. Cit.* p. 182.

(٢٨٥) **فيليب حتي**، *تاريخ سورية ولبنان*، جـ٢، ص٢٥٥.

(٢٨٦) **باركر- أرنست**، *الحروب الصليبية في تراث الإسلام*، مصر، ١٩٣٩م، ص١٢٣؛ **النقاش زكي**، العلاقات، ص١٤٨.

(٢٨٧) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص ص: ١٩٠–٢٢٧؛

(٢٨٨) **أسامة بن منقذ**، *كتاب الاعتبار*، ص ص:١٩٥–٢٢٧.

(٢٨٩) **رنسيمان**، *تاريخ الحروب الصليبية*، جـ٢، ص٢٠.

(٢٩٠) **زابوروف ميخائيل**، *الصليبيون في الشرق*، ص ص:٣٧–٣٣٨.

(٢٩١) **لوبون غوستاف**، *حضارة العرب*، نقله للعربية عادل زعيتر، القاهرة، ١٣٦٤هـ، ص ١٠٢.

(٢٩٢) **Grousset,** *Op.Cit.* I,p.387 ؛ **زكي النقاش**، *العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية*، ص ص: ١٧١–١٧٢ .

(٢٩٣) **Watson A.M.,** *"Back to Gold- and Silver"*, E.H.R, xx (1967), pp: 9 – 11; **ابن جبير**، *رحلة ابن جبير*، ص٢٣٥، **Mayer, H.E.**: *The Crusades*, Oxford, 1972 p. 163

(٢٩٤) **Pernoud** : *Op. Cit*, p. 192 ; **Riley – Smith** : *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem*, London, 1973, pp: 63 - 69

(٢٩٥) **Riley – Smith** : *Op, cit*. p. 64

(٢٩٦) **Byrne E.H.**: "*Genoese trade with Syria in the twelfth Century* "Amercan Histoy Review xx (1919 - 1920), pp: 217 - 218., **Pernoud**. *Op. Cit*., p.192, **Riley - Smith**: *Op. Cit* pp: 63 - 64.

The Civilizational Dialogue between Muslims and Christians During the Crusades (491 – 691 A.H. / 1097 – 1291 A.D.)

M.S. BaAmer

Faculty of Arts and Humanities King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

Abstract: This research deals with the civilizational dialogue between the Orient, Arabic and Islamic and the West, European and Christian, during the crusades. It embodies an introduction that confirms that the Arabic Civilization, through its historic era, is full of many examples that emphasize the progress reached by its children and what had been injected to the West European Civilization from the Arabic Orient Civilization. This is an indication of interaction between civilizations not their conflicts and Islam is a religion of tolerance that accepts the other and be open to him. It does not recognize the tendency towards superiority even when the Muslims had their power influence and cruise ride. The research also deals with the factors that necessitated the existence of the Civilization Dialogue between the two parties like Boundary Orderliness which have been mentioned in recent sources as the Land of Bisection, the respect of Political Boundary Design as an ingredient of Dialogue during peace time which had prevailed, the regulation of shared Boundary in the Land of Bisection, the element of commerce in the Civilizational Dialogue, the customs and their role as bridges for the Dialogue, the administrative regime in both sides, the peasants and their fit in the enrichment of the Dialogue and the peaceful coexistence and the treatment of captives and their function in the nearly of trust between the two sides and the arrangement of their dealings and the pioneering role played by the Muslims in this respect and the magnanimity of Islam with them in visiting the Holy Christian Sites as a factor of Dialogue and the Muslims guarantee of political asylum for the European Westerners and its effect in the Dialogue, the Translators as pioneers for the Civilizational Dialogue and the effect of the influence of the cultural relations between the two sides as a branch of the tributaries of the Civilizational Dialogue. The end of the study highlights the most important results and recommendations and its seal is composed of the notes, comments and sources of the research.

تم بحمد الله

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز